الرِّياء والعجب

حجة الإسلام والمسلمين
آية الله السيد أحمد الفهري
ممثل الإمام الخميني في لبنان وسوريا

الدار الإسلامية


شبكة الفكر
alfeker.net

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م



كورنيش المزرعة / بناية الحسن سنتر / الطابق الثاني
هاتف ٨١٦٦٢٧ / ص . ب : ١٤٥٦٨ تلكس ٢٣٢١٢ - غدير
فرع ثاني / حارة حريك مفرق الحلباوي / هاتف ٨٣٥٦٧٠

الرِّياء والعجب

حجة الإسلام والمسلمين
آية الله السيد أحمد الفهري
ممثل الإمام الخميني في لبنان وسوريا

الدار الإسلاميّة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم السرائر وخبر الضمائر، له الإحاطة بكل شيء والغلبة والقوَّة على كل شيءٍ، والصلاة والسلام على البشير النذير والسراج المنير محمَّد سيِّد المرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين.

وبعد.. فإن القلب الذي به شُرِّف الإنسان على سائر الخليقة، هو في حكم المرآة، يتأثر ممَّا يصل إليه من الآثار المذمومة للأخلاق القبيحة والأعمال السيئة، فإذا كانت الآثار محمودة فتزيد مرآة القلب صفاءً وإشراقاً وضياءً، حتى تتلألأ فيه جليَّة الحق وتنكشف فيه سريرة الأمر المحجوب عن المخلوقين، وحقيقة الأمر المطلوب في الدين، وإلى مثل هذا القلب أشار مولىٰ الموحَّدين أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه: عباد الله إنَّ من أحبِّ عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف فزهر مصباح الهدى في قلبه، إلى أن قال: فهو من اليقين على مثل ضوءِ الشمس، فهذا القلب هو الذي إذا ذكر الله وجل، وإذا

تليت عليه آياته زادته إيماناً، وهو الذي يستقر فيه الذكر، قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

وإذا كانت الآثار مذمومة فهي مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب، ولا يزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى إلى أن يسودّ صحيفة القلب بتمامها. وتظلم بكلّيّتها، مطبوعاً بالرين، محجوباً عن الله تعالى. قال سبحانه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ فربط عدم السماع بالطبع على القلوب وطبعها بالذنوب.

وروى الكليني (ره) في الكافي (ج ٢ ص ٢٧٣ تحت رقم ٢٠) عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإن أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتّى يغطي البياض، فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً» وهو قول الله عزّ وجل: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وربّما يستفاد معنى هذه الرواية من قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾. فتأمّل تعرف.

وعنه عليه السلام: «إن القلوب ثلاثة: قلب منكوس لا يعي شيئاً من الخير، وهو قلب الكافر. وقلب فيه نكتة سوداء، والخير والشَّر فيه يعتلجان فأيُّهما كانت منه غلب عليه، وقلب مفتوح فيه مصابيح يزهر لا يطفأ نوره إلى يوم القيامة، وهو قلب المؤمن. وإنَّما قال إلى يوم القيامة لأن هذا القلب لا يخرب بخراب البدن فطاعة الله مصقلة للقلب، ومعاصيه مسوِّدات له».

فإذا كانت الأعمال صالحة والعبادات مقبولة فلا بدَّ من أن تؤثر في صفاءِ القلب ونوره وإشراقه، وصلاح الأعمال وبالخصوص العبادات منها بأن تكون تامة الأجزاءِ والشرائط، وأن يؤتىٰ بهما خالصة لله تعالى، فإذا كان العمل فاقداً لهذين الشطرين: إمَّا بأن يكون ناقصاً من حيث الأجزاءُ والشرائط، أو فاقداً للإخلاص، فلا يكون له نور القلب، ولا يؤثر في صفاءِ القلب وتجليته. فما نراه في أنفسنا وقلوبنا من أنه ليس للعبادات فيها أثر، ولم نحسّ لها نوراً في الباطن، ولا أثراً في الخارج، مع أن أكثر عباداتنا أو كلّها واجدة للشطر الأول، وجامعة للأجزاء والشرائط الظاهرية، وبعبارة أخرى: إنها صحيحة ظاهراً ومع ذلك ففقدانها للنور إنما هو لفقدانها الإخلاص لله تعالى. وإلَّا فلماذا لا تنتهي

من الفحشاءِ والمنكر بعدما كنّا نصلّي أربعين أو خمسين سنة، مع أن القرآن الكريم ينصّ بأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولماذا لا تجري ينابيع الحكمة من قلوبنا، مع أن الحديث الشريف يحدّد جريانها بأربعين يوماً في قوله (ع): من أخلص لله أربعين صباحاً جرت ينابيع الحكمة من قلبه إلى لسانه؟ ولماذا يتلاعب بنا الشيطان ويتدخل في جميع أمورنا مع أنَّه عهد إلى الله تعالى أن لا يغوي المخلصين: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾. فليس ذلك إلا من جهة أن أعمالنا ليست مقترنة بالإخلاص. ولست أعني من الإخلاص الذي فقدته أعمالنا مراتبه العالية التي هي من خصائص الأولياء والمقربين وليس لنا منها نصيب، بل المعني به هنا أقل مراتبه، وهو خلوّه من الرياء المبطل للأعمال. فلو فتَّشنا أعمالنا وعباداتنا نجد أن الشيطان قد نفذ في أكثرها وأفسد علينا أعمالنا، كما سنوضحه إن شاء الله تعالى، والعمل المأتي به رياءً فاسد شرعاً ولا يترتب عليه أثر، فمن الواجب علينا تصحيح أعمالنا من هذه الجهة، وتخليصها من الرياء فإنه شرك بالله تعالى في العبادة كما قال عليه السلام: «كل رياء شرك».

وحيث أن للرياء شعباً كثيرة، وللشيطان والنفس في هذا

المجال مكائد خفيَّة لا يطَّلع عليها إلاَّ الناقد البصير، كتبت هـذه الوجيـزة مستفيداً معـانيها من كلمـات علماءِ الآخـرة وأساتذة الأخلاق، وبالأخص الأستاذ الأعظم الإمام الخميني دام ظلّه، سائلاً المولى جل جلاله أن يجعلهـا خالصة لوجهه ولا يجعل للشيطان فيها نصيباً، لتكون ذريعة للنَّجاة ووسيلة إلى المغفرة والله هو الموفق والمعين.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة على محمد وآله وعباد الله المخلصين.

الرياء في نظر القرآن

١ ـ ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُراؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الماعُونَ﴾. الماعون: ٤ ـ ٧.

٢ ـ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعبُدُوا اللهَ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ﴾. البينة: ٥.

٣ ـ ﴿أَلا للهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾. الزمر: ٣.

٤ ـ ﴿فَمَنْ كَانَ يَرجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾. الكهف: ١١٠.

الرياء في الأخبار

١ ـ الكافي بإسناده عن يزيد بن خليفة قال: قال لي أبو عبدالله عليه السلام: «كلّ رياءٍ شرك. إنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس، ومن عمل لله كان ثوابه على الله».

٢ ـ روىٰ الصدوق في أماليه عن رسول الله (ص) أنه سئل فيم النجاة غداً؟ فقال: «إنما النجاة في أن لا تخادعوا الله فيخدعكم، فإنه من يخادع الله يخدعه ويخلع منه الإيمان، ونفسه يخدع لو يشعر، فقيل له وكيف يخادع الله؟ قال يعمل بما أمر الله به ثم يريد غيره، فاتقوا الله واجتنبوا الرياء فإنه شرك بالله. إن المرائي يدعىٰ يوم القيامة بأربعة أسماء: يا كافر يا فاجر يا غادر يا خاسر، حبط عملك وبطل أجرك ولا خلاق لك اليوم، فالتمس أجرك ممَّن كنت تعمل له».

٣ ـ وسائل الشيعة للحرّ العاملي عن قرب الإسناد بإسناده إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله

عليه وآله: «من تزيَّن للناس بما يحب الله وبارز لله في السر بما يكره الله لقي الله وهو عليه غضبان له ماقت».

ويأتي للحديث الشريف بيان فانتظر. والأخبار كثيرة. وفيما ذكرنا كفاية وتذكرة.

معنى الرياء

كلمة «رياء» مشتقة من الرؤية كما أن السمعة ـ وهي نوع من الرياء ـ مشتقة من السماع، ومعنىٰ الرياء في الأصل أن يطلب الإنسان بإراءة أعماله الحسنة الجاه والمنزلة في قلوب الناس؛ وهذا وإن أمكن تحققه في جميع الأعمال الحسنة ولكن الاصطلاح الشرعي في الرياء عبارة عن أن يتحقق هذا القصد في العبادات والأعمال التي يكون قصد القربة إلىٰ الله شرطاً في تحققها شرعاً، فبناء علىٰ ذلك فمعنىٰ الرياء هو (إتيان ما يشترط فيه القربة طلباً للمنزلة عند الناس). وللإمام القائد الخميني دام ظله كلام في المقام يستفاد منه أن الرياء عنده ليس مختصاً بالعمل العبادي بل هو أعمّ منه، فإنه يقول[1]: اعلم أن الرياء عبارة عن إراءة الناس شيئاً من

---

(١) ما ذُكر من كلام الإمام الخميني في هذه الرسالة كان أصله باللغة الفارسية والتعريب مني حافظاً لأمانة النقل.

الأعمال الحسنة أو الخصال المحمودة أو العقائد الحقة لتحصيل المنزلة في قلوبهم والشهرة عندهم بالبر والصحة والأمانة والديانة من دون قصد صحيح إلهي، وهو يتحقق في مقامات.

المقام الأول:

وفيه درجتان:

الدرجة الأولىٰ: أن يظهر الإنسان العقائد الحقة والمعارف الإلهية ليشتهر بالديانة، وتكون له المنزلة في القلوب، كأن يقول: إني لا أرىٰ في الوجود موثراً سوىٰ الله، أو يقول: إني لا أتوكل علىٰ غير الله، أو يعرّف نفسه بالعقائد الحقة علىٰ نحو الكناية والإشارة. وهذا النحو من الرياء أكثر رواجاً، مثلاً إذا جرىٰ الحديث عن التوكل أو الرضىٰ بالقضاء الإلهي في مجلس فالمرائي عندئذ يتأوه أو يحرك رأسه علامة كونه منسلكاً في سلك المتوكلين أو الراضين بقضاء الله.

الدرجة الثانية: أنه يبرّئ نفسه ويزكّيها عن العقائد الباطلة طلباً للجاه والمنزلة في القلوب، سواء أكان بالصراحة أو بالكناية أو بالإشارة.

المقام الثاني

وله أيضاً مرتبتان:

المرتبة الأولى أن يظهر الخصال الحميدة والملكات الفاضلة، يطلب بذلك الجاه والمنزلة. والثانية: أن يزكي نفسه من مقابلاتها ويتبرّأ من الخصال الذميمة والملكات الخبيثة لذلك الغرض.

المقام الثالث:

وهو الرياء المعروف عند الفقهاء رضوان الله عليهم، أيضاً له هاتان الدرجتان، إحداهما الإتيان بالعمل الشرعي والعبادة الشرعية، أو الإتيان بالراجحات العقلية بقصد إراءتها للناس وجلب قلوبهم، أعم من أن يقصد الرياء بذات العمل، أو في كيفيته أو في شرطه أو في جزئه على ما ذكروه في الكتب الفقهية، وثانيتهما أن يترك عملاً لذاك المقصود.

هذا ما ذكره الإمام دام ظله في تقسيم الرياء.

وذكر بعض علماء الآخرة تقسيماً آخر للرياء، بعدما حدد الرياء بأنه إرادة العباد بطاعة الله، فجعله خمسة أقسام: ١ ـ الرياء في الدين بالبدن. ٢ ـ الرياء في الدين من جهة

الزي واللباس والهيئة والقيافة. ٣ ـ الرياء في القول. ٤ ـ الرياء في العمل. ٥ ـ الرياء في الصحبة والمعاشرة مع الناس. وهذا التقسيم وإن لم يكن تقسيماً منطقياً ولكن حيث أنه ذكر لكل منها أمثلة تبيِّن موارد الرياء وتوضح تدليسات النفس، وتفيد لمن أراد تزكية نفسه وإصلاحها وتهديه إلى طرق مكائد النفس، فنذكر جملة مما ذكره في المقام بتصرّف منّا. قال:

أما القسم الأول وهو الرياء في الدين بالبدن، وذلك بإظهار النحول والضعف والصفرة في الوجه، ليوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين، وغلبة خوف الآخرة، وليدلّ بالنحول علىٰ قلة الأكل، وبالصفرة علىٰ سهر الليل وكثرة الاجتهاد، وعظم الحزن علىٰ الدين، وكذلك يرائي بتشعيث الشعر ليدل علىٰ استغراق الفم بالدين وعدم التفرغ لتسريح الشعر، وهذه الأسباب مهما ظهرت استدل الناس بها علىٰ هذه الأمور، فارتاحت النفس لمعرفتهم، فلذلك تدعوه النفس إلىٰ إظهارها لنيل الراحة. فلربما ترىٰ هذا المرائي يخفض صوته عند التكلم، ليتوهم السامع أن خفض الصوت من كثرة العبادة، أو أن ذبول شفتيه من المواظبة على الصوم، ولهذا قال المسيح عليه السلام: إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجّل شعره ويكحل عينيه. وإنما قال (ع) ذلك لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء.

وأمـا الريـاء في الدين من جهـة الزي والهيئـة فبتشعيث الشعر وإطراق الرأس في المشي، زائداً علىٰ ما يلازم الحياء والوقار والهدوء في الحركة، وإبقاء أثر السجود علىٰ الجبهة، وربما يلبس ثوباً غير نظيف ليسلك نفسه في سلك عبـاد الله الصالحين. والمراؤون بالزي علىٰ طبقات: فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصـلاح والمتديـنين بإظهـار الزهد، فيلبس الثـوب الخلق ويتزهـد عنـدهم، ويعيش في المجتمـع بتلك الصفة. وعلامة ريائـه أنه لـو كُلِّف أن يلبس ثوبـاً وسطـاً نظيفاً مما كان السلف الصالح يلبسه لشقَّ ذلك عليه، وكان عنده بمنزلة الذبح، وذلك لخوفه أن يقول الناس قد بدا لـه من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا، وطائفة أخرىٰ يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من التجار والأشراف، فهؤلاء المساكين يقعون في حرج ويـدور أمرهم بين المحذورَين؛ لأنهم لو لبسوا الثياب الفاخرة ردهم الـزهَّاد والعبَّـاد، ولو لبسـوا الثياب الخلقـة البـذلـة فلربمـا يسقطون في أعين أهل الدنيا والأغنياء، وهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا، فلذلك يختارون ألبسـة تكون ذات قيمة من جهة النسج والقماش فتكون قيمتها قيمة ثوب أحـد الأغنياء، ولكن هيئتهـا ولونها هيئـة لباس الصـالحين ولونه، فيلتمسون بهذه الحيلة القبول عند الفريقين، وعلامة

رياء هذه الطائفة أنهم لو كُلِّفوا لبس الثياب القيمة ذات الهيئة الحسنة لعظم ذلك عليهم خوفاً من أن يقول أهل الصلاح إنهم قد رغبوا في الدنيا، ولو كلفوا لبس خشن أو بذل لكان تكليفاً شاقاً خوفاً من السقوط من أعين الأغنياء، فكل من هذه الطوائف يرىٰ منزلته في زي مخصوص، فيثقل عليه الانتقال إلى ما دونه أو إلىٰ ما فوقه أو إلىٰ غيره، وإن كان مباحاً، وحتىٰ إذا كان راجحاً شرعاً.

وأما الرياء في القول؛ وهو بأن يكثر المرائي في الموعظة والتذكير ليجلب بذلك قلوب الناس إلىٰ نفسه، ويحفظ كلمات من الحكمة والأخبار والآثار لأجل الاستعمال في المحاورة إظهاراً لغزارة العلم، ودلالة علىٰ شدة عنايته بأحوال السلف الصالح، ويختار من الأذكار ما هو مشتمل على الحروف المصوّتة أو لا أقل من الحروف الشفوية، ليتحرك لسانه في محضر الناس؛ وإن كان الذكر مشتملاً على كلا النوعين من الحروف فهو عنده أفضل وأحسن، ويشتغل بالذكر في المجالس مع أنه ربما يجلس في الخلوة ساعات ولا تتحرك شفتاه بشيء من ذكر الله، ويشتدّ إنكاره للمنكرات بمشهد من الخلق، ويتأسف علىٰ مقارفة الناس المعاصي، ويتعجّب من جرأتهم علىٰ معصية الله، كي يفهم الناس أنه

لا يقترف المعصية ولا يجترئ عليها. وشعب الرياء في القول كثيرة يطول الكلام بذكرها.

وأما الرياء في العمل كمراءاة المصلي بطول القيام وقراءة السور الطوال، خصوصاً إذا كان إمام جماعة، كي يعتقد الناس بفضله، وأنه حافظ لكثير من السور القرآنية، ويغبطونه أيضاً لِطول قيامه في العبادة، مع أنه إذا كان يصلي في بيته أو في خارجه في مكان لا يراه أحد قطعاً يكتفي بأقصر سورة من السور القرآنية، وكذلك حاله في الخشوع والخضوع وطول السجود، فتكون في مرأى الناس أكثر منها في الخلوة، وخصوصاً إذا كان إمام جماعة، فيكثر من إظهار الخشوع ويطيل سجوده خصوصاً سجود الشكر بعد الصلاة، فربما يبقىٰ في السجود حتىٰ يتفرق المأمومون كلهم وهو في السجدة، وكذلك في بقية الأعمال من الصوم والصدقة والحج؛ وحتىٰ في المشي فإنه يمشي بهدوء وإرخاء الجفون وتنكيس الرأس، حتىٰ أن المرائي قد يسرع في المشي إلىٰ حاجته، فإذا اطلع عليه أحد من أهل الدين رجع إلى الوقار وإطراقة الرأس خوفاً من أن ينسبه إلى العجلة وقلة الوقار، فإذا غاب الرجل عاد إلىٰ عجلته، وربما يصلي المرائي وحده بلا خشوع، فإذا رآه أحد عاد إلى خشوعه. ولم يذكر

حضوره في محضر الله سبحانه، حتىٰ يكون تحديد الخشوع له تعالىٰ بل هو لإطلاع إنسان عليه يخشىٰ أن لا يعتقد فيه أنه من العبَّاد والصلحاء.

ومنهم من يكون في الرياء إذا تفطن بهذا استحيى من أن تخالف مشيته في الخلوة مشيته بمرأى من الناس، وخاف من أن يعلم الناس اختلاف مشيته، فيكلف نفسه المشية الحسنة والمتواضعة في الخلوة حتىٰ يعتاد ذلك، وتتساوىٰ خلوته وجلوته، ولا يفتقر إلىٰ التغيير إذا رآه الناس، ويظن أنه تخلص بهذا من الرياء غفلة من أنه قد اشتد رياؤه وتضاعف مكره، وسرىٰ رياؤه إلى خلوته أيضاً، فإنه إنما يحسن مشيته في الخلوة ليكون كذلك أمام الناس، لا لخوف من الله ولا حياء منه.

وحيث أن المورد من خفايا أمر الرياء نوضحه بمثال آخر وتوضيح أكثر للأخوة الإيمانيين: وهو أنه ربما يتفق للمرائي أن عقله، وهو الرسول الباطني، أو الملك الموكل لأعماله الخيرية بتعبير الروايات، يلهمانه بأن الصلاة مثلاً التي تصليها في الملأ هي أكثر خشوعاً وأطول أذكاراً من الصلاة التي تصليها في البيت وبعيداً عن الأبصار، ولا شك بأن مثل هذه الصلاة باطلة لدخول الرياء فيها، فحينئذ ربما يتدخل الشيطان أو

النفس في الموضوع فينصبان له فخاً خفياً قلما ينتبه إليه المصلي، وهو أن النفس والشيطان يكلفان المصلي أن يصلي في الخلوة أيضاً بالخشوع والأذكار الطويلة، ليعدّ جواباً للعقل أو الملك بأن صلاتي في الملأ هي كما أصليها في الخلوة، فأية حجة عليّ بأن صلاتي صلاة المرائي؟ أليست صلاتي في مرأى الناس كصلاتي في بيتي؟ بل الصلاة مني في الخلوة ربما تكون أكثر خشوعاً وأطول أذكاراً منها في خارج البيت ومرأى الناس. ولكن المسكين غفل عن أن الشيطان والنفس لم يبقيا له صلاة صحيحة حتىٰ في الخلوة وجوف الليل، وبعبارة أخرىٰ: إن من علائم عدم كون العمل رياءً أن يكون العمل في مرأى الناس كالعمل في الخلوة لا أن يكون العمل في الخلوة مثل العمل في الملأ. فتدبَّر واغتنم.

وأما الرياء في المعاشرة: فهو بأن يهيئ الإنسان وسائل لأن يزوره العلماء ليقال إن فلاناً قد زار فلاناً أو يزوره العلماء، ليقال إن أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون إليه، وإذا تمكن من التوسل إلىٰ أسباب تزوره التجار والأشراف أيضاً فبها ونعمت، حتىٰ يقال إن فلاناً تحترمه جميع الطبقات من العلماء والعبّاد وأهل الدنيا. وإذا لم يتمكن من استزارتهم فيذهب هو إلىٰ زيارة العلماء والعباد ليري أنه لقي

علماء وشيوخاً كثيرين واستفاد منهم، فيباهي بهم، فإذا ذكر الأبرار والصالحون يتنفَّس الصعداء ويقول نعم كم لقيت من أولئك الأبرار وخدمتهم وسعدت بخدمتهم، ليتنبه السامعون بأن خدمة الأولياء والصالحين لا تكون بلا عوض عندهم، وأنهم قد أفاضوا عليه من فيوضاتهم لا محالة.

ومن المرائين من يقنع بحسن الاعتقادات فيه، فكم عابد اعتزل الناس وقعد في بيته وصرف أوقاته في العبادة وهو مبتهج بأن للناس فيه اعتقاداً حسناً، فهو مع أنه قد قطع طمعه من أموالهم لكنه يحبّ مجرد الجاه وحسن عقيدة الناس فيه، فإنه لذيذ كما ذكر في محله، فإنه نوع قدرة وكمال في الحال، وإن كان سريع الزوال لا يغتر به إلا الجهال، ولكن أكثر الناس جاهلون. وآية ذلك أن لو عرف الناس الحقيقة لأساؤوا الظن به وزالت عقيدتهم عنه، وظنوا أنه ارتكب قبيحاً فجلس لذلك في بيته، لتشوش قلبه ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته وطهارة ذيله بل يشتد لذلك غمه، وربما يترك الاعتزال والعبادة ويخرج إلى المجتمع، فهذا المسكين وإن قطع الطمع عن مال الناس ومعاشرتهم لكنه مدّ عينيه إلىٰ حسن عقيدتهم وثنائهم عليه، فحب الجاه قد جذر في قلبه، ونفسه المسكينة قنعت بهذا القدر من اللذة.

هذه مجامع ما يرائي به المراؤون، وكلهم يطلبون الجاه والمنزلة في قلوب الناس. وللرياء موارد أخر يطول ذكرها قد يتنبه إليها من أحبه الله، فإن الله إذا أحب عبداً بصّره بعيوب نفسه.

* * *

أقبح درجة من درجات الرياء

قال الإمام الخميني دام ظله: اعلم أن الرياء في أصول العقائد والمعارف الإلهية هو أشد أقسام الرياء وأسوأها عاقبة، والظلمة الحاصلة منه للقلب أكثر وأزيد من جميع أقسام الرياء.

فإن صاحب هذا الرياء إن لم يكن معتقداً لما يريه فهو من المنافقين الذين وعدهم الله الخلود في النار، وله الهلاك والبوار الأبدي، وعذابه أشد عذاب. وإن كان معتقداً لذلك الأمر ولكنه طلباً للمقام في القلوب والمنزلة عند الناس يظهر أمره،فهذا وإن لم يكن منافقاً ولكن هذا الرياء يوجب أن يزول نور الإيمان من قلبه، وتدخل ظلمة الكفر مكانه، لأن هذا الشخص وإن كان في أول الأمر مشركاً بالشرك الخفي، فإنه قد عرض علىٰ الناس المعارف الإلهية والعقائد الحقة التي لا بد أن تكون خالصة لله سبحانه، وصاحبها هو الذات المقدسة للحق جل جلاله، وهو قد أشرك غيره فيها وجعل الشيطان متصرفاً فيها، فهذا العمل القلبي[1] قد

(١) سنبين إن شاء الله أن الإيمان من الأعمال القلبية.

صدر منه لغير الله، كما قال عليه السلام في الحديث الشريف في الكافي: «كلّ رياء شرك» ولكن هذه السريرة المظلمة والملكة الخبيثة تجران أمر الإنسان إلىٰ أن يكون بيت القلب مختصاً بغير الله، وتكون ظلمة هذه الرذيلة سبباً بالتدريج لأن يخرج الإنسان من الدنيا بلا إيمان، ويكون هذا الإيمان المتوهم صورة بلا معنىٰ وجسداً بلا روح وقشراً بلا لب، ولا يكون مورداً لقبوله تعالىٰ، كما أشار إلى ذلك في حديث الكافي الشريف عن علي بن سالم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قال الله عز وجل: «أنا خير شريك، من أشرك معي غيري في عمل عمله لم أقبله، إلا ما كان لي خالصاً».ومن المعلوم أن الأعمال القلبية إذا لم تكن خالصة لا تكون مقبولة عند الله تعالىٰ، ولا ينظر الله إليها، ويكلها إلىٰ الشريك الآخر، وهو الذي صدر العمل مراءاة له، فتكون الأعمال القلبية مختصة لذلك الشخص، وتخرج المرائي عن حدّ الشرك ويدخل في الكفر المحض، بل يمكن أن يقال إن هذا الإنسان أيضاً من زمرة المنافقين وكما أن شركه كان مخفياً كذلك نفاقه أيضاً كان مخفياً، والمسكين توهّم أنه مؤمن، ولكنه مشرك في أول الأمر ومنافق في نتيجة الأمر، ولا بد له أن يذوق عذاب المنافقين، والويل لمن ينجر أمره إلىٰ النفاق.

في بيان أن الإيمان غير العلم

ثم بين الإمام الخميني دام ظله أن الإيمان غير العلم وقال:

اعلم أن الإيمان هو غير العلم بالله، والعلم بوحدانيته وسائر صفاته الكمالية الثبوتية والجلالية السلبية، والعلم بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، فربما يكون أحد عالماً بهذه كلها ولا يكون مؤمناً.

إن الشيطان عالم بجميع هذه المراتب بمقدار ما أعلم وبمقدار ما تعلمون، ومع ذلك هو كافر، وأيضاً معتقد بالمبدأ ويعلم بأن الله خالق لأنه يقول: خلقتني من نار وخلقته من طين، وهو عالم بالمعاد أيضاً لأنه يقول أنظرني إلىٰ يوم يبعثون، ولكن مع هذا الوصف فهو كافر بصريح القرآن: ﴿وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾.

والسر في هذا أن الإيمان هو عمل قلبي، ما لم يتحقق لم يكن الإيمان موجوداً، فمن علم شيئاً بمقتضىٰ البرهان العقلي أو بالحكم الضروري للأديان فلا بد له أن يكون بالقلب تسليم لذلك المعلوم، ويأتي بالعمل القلبي الذي هو

نـوع من التسليم والخضوع، ونحـو من التقبل والتحمـل، حتىٰ يكون مؤمناً، وكمال الإيمان هو الاطمئنان كما تشير إلىٰ ذلك الآية الشـريفة: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فـإذا قوي نـور الإيمـان في القلب فيتبعـه حصـول الاطمئنـان له، وجميـع ذلك غيـر العلم،فيمكن أن تـدرك عقــولنـا شيئـاً بــالبــرهــان ولـكن قـلوبنـا لـم تسـلم له، فيكون العلم بلا فائـدة، فمثـلاً إذا أدركت بعقلك أن الميت لا يملك لأحد ضراً، ولو اجتمعت جميع أموات العالم لم يكن لهم حس ولا حـركة حتىٰ بمقـدار بعوضـة، وأن جميـع القوىٰ الجسمية والنفسيـة قد فـارقته، ولكن حيث أن هـذا المعنى لم يتجاوز حد العلم، ولم يكن مقبولاً للقلب، ولم يكن القلب مسلماً للعقـل، لا تقـدر أن تبيت مـع ميت في ليـل مظلم، وتخاف منـه، ولكن إذا صار القلب مسلماً للعقـل، وقبلَ هذا الحكم من العقل، فلا يكـون لك في المبيت مـع الميت أي إشكال، كما أنك إذا أقدمت على العمل، وتكـرر المبيت منك مع الميت، فالقلب يستسلم للعقل ولا يخاف من الميت، فعُلِمَ أن التسليم هـو خطّ القلب، وهـو غـير العلم الـذي هـو خطّ العقـل، فحينئـذ يمكن أن يثبت الإنســان بالبرهان العقلي وجود الصانع تعالىٰ وتوحيده ويوم المعاد وما سـواه من العقـائـد الحقـة، ولكن لا يـطلق الإيمـان لهــذه

العقائد، ولا يحسب صاحبها من المؤمنين، بل يكون في زمرة الكفار أو المنافقين أو المشركين. غاية الأمر أنه اليوم قد ألقي الغطاء علىٰ عين قلبه، وليس له البصيرة الملكوتية وهذه العين الملكية، فهو لا يدرك ذاك المعنىٰ، ولكن إذا انكشفت السريرة، وبرزت السلطنة الحقة الإلهية، وصارت الطبيعة إلى خراب، وقامت الحقيقة علىٰ ساقها، فعندئذ تشعر بأنك لم تكن مؤمناً بالله. والحكم المذكور للعقل لم يكن مرتبطاً بالإيمان[1].

(فيا عزيزي) ما لم تكتب الكلمة المباركة لا إله إلا الله بقلم العقل علىٰ لوح القلب الصافي فليس الإنسان مؤمناً بوحدة الله تعالىٰ.

وإذا دخلت هذه الكلمة الطيبة الإلهية إلىٰ القلب فتكون سلطنة القلب للحق تعالىٰ بالمباشرة، فلا يرىٰ صاحب القلب إنساناً آخر مؤثراً في مملكة الحق، ولا يتوقع من سواه

---

(١) وليعلم أن ارتكاب جملة من المعاصي لا يتلاءم والاعتقاد بالمعاد ويوم الحساب، بل الإتيان بها لا يتلاءم والاعتقاد بالحضور في محضر الحق تعالىٰ، كما أشير إلىٰ ذلك غير مرة في الأدعية الشريفة المأثورة كقوله عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثمالي «فلو اطّلع اليوم علىٰ ذنبي غيرك ما فعلته، ولو خفت تعجيل العقوبة لاجتنبته» وحل هذا الإشكال يطلب فيما ذكره الإمام دام ظله في المقام.

جاهاً ولا شرفاً، ولا يكون طالباً للمنزلة والشهرة عند الناس، فلا يكون القلب مرائياً وخادعاً، فإذا رأيتم الرياء في القلب فاعلموا أن قلوبكم ليست مسلّمة للعقل، ولم يتشعشع الإيمان في قلوبكم، وترون غير الله إلهاً مؤثراً في العالم لا الحق تعالىٰ، فإذاً أنتم في زمرة المشركين أو المنافقين أو الكفار. انتهىٰ كلامه.

ثم إن للإمام دام ظله بعد بيان مراتب الرياء ومنشئه في المرتبة الأولىٰ موعظة بليغة يذكر فيها وخامة أمر الرياء، وإن في ذلك لذكرىٰ لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد.

فيقول أستاذ العلوم الإلهية الإمام الخميني دام ظله:

فيا أيُّها الشخص المرائي الذي سلَّمت العقائد الحقة والمعارف الإلهية إلىٰ يد عدو الله وهو الشيطان، وأعطيت الأمور المختصة لله سبحانه لسواه، واستبدلت الأنوار التي كانت منورة للروح والقلب، وكانت رأس مال النجاة والسعادة الأبدية، ومنبع اللقاء الإلهي، وبذراً لجوار المحبوب بالظلمات الموحشة، والشقاوة والهلاك الأبدي، ورأس مال البعد عن الساحة المقدسة للمحبوب، والهجر من لقاء جناب الحق تعالىٰ، فتهيأ لظلمات لا يكون وراءها نور، وضيق ليس معه سعة، وأسقام لا تشفىٰ وموت لا حياة

معه، ونار تظهر من باطن القلب وملكوت النفس، وتحرق ملك البدن حرقاً لم يخطر علىٰ قلبي وقلبك، كما أخبر الله تعالى في الكتاب المنزل عن وصفها في الآية الشريفة ﴿نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلىٰ الأَفْئِدَةِ﴾. فإن نار الله تستولي علىٰ القلوب فتحرقها، ولا تتمكن نار من أن تحرق القلب سوىٰ نار الله، فإذا فاتت من أحد فطرة التوحيد التي هي فطرة الله، واستقر في مكانها الشرك والكفر، فلا يكون له من شفاعة الشافعين نصيب، ويكون الإنسان مخلداً في العذاب وأي عذاب، عذاب يبرز من قهر الله والغيرة الربوبية. فأنت أيها العزيز لا تجعل نفسك مورداً لسخط الله وغضبه، لأجل خيال باطل ومحبوبية جزئية عند العباد الضعفاء، ولا تبع تلك الألطاف الإلهية والكرامات غير المتناهية والرحمات الربوبية بالمحبوبية عند الخلق، التي لا أثر لها ولا ثمرة منها سوىٰ الندامة والحسرة، فإذا انقطعت يدك من هذا العالم الذي هو المتجر والمكسب، وانقطع عملك، فلا تنفعك الحسرة والندامة، ولا يمكنك الرجوع والاستعادة.

* * *

درجات مقاصد الرياء

قال بعض علماء الآخرة: إنَّ الرياء بالنظر إلىٰ ما يراءى لأجله ثلاث درجات. فإن للمرائي مقصوداً لا محالة في ريائه:

الدرجة الأولىٰ: وهي أشدها وأعظمها، أن يكون مقصوده التمكن من معصية الله والوصول إلىٰ المحرم، كالذي يرائي بعبادته ويظهر التقوىٰ والورع، بكثرة النوافل والامتناع عن كل الشبهات، وغرضه أن يعرف بالأمانة، فيولّىٰ القضاء أو الأوقاف أو الوصايا أو مال الأيتام، فيأخذها ويستأثر بما قدر عليه منها، أو يودَع الودائع فيأخذها ويجحدها ويتوصل بها إلىٰ مقاصده الفاسدة في المعاصي، وقد يظهر بعضهم في زي الصلحاء، ويتكلم بكلام الحكمة والموعظة والتذكير، وإنما قصده التحبب إلى امرأة جميلة، وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحتىٰ القرآن، يظهرون الرغْبة في سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النساء، وهؤلاء أبغض المرائين إلىٰ الله

تعالىٰ، لأنهم جعلوا طاعة ربهم سُلَّماً إلىٰ معصيته، واتخذوه آلة ومتجراً وبضاعة في فسقهم. ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم من هو مقترف جريمة اتهم بها وهو مصرّ عليها ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه، فيظهر التقوىٰ لنفي التهمة، كالذي جحد وديعة واتهمه الناس بها، فيتصدق بالمال ليقال إنه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحل مال غيره وأمثال هؤلاء كثير بين المسلمين، فيكون أفراد قد جمعوا من أموال المسلمين ملايين عن طريق الربا أو غيره من المعاملات غير الشرعية ثروة ومالاً، فيرىٰ أنه عوضاً من أن يرد أموال الناس إليهم؛ يتصدق ببعض ماله، أو يبني مسجداً أو مستشفىٰ، ليقول الناس إن هذا الشخص الذي يبني المسجد أو المستشفىٰ، كيف يتعدىٰ إلىٰ أموال الناس وحقوقهم، أو أن أحداً ينسب إلىٰ فجور بامرأة، وقد رفع الله سبحانه ستره عنه وافتضح عند الناس، فهو عوضاً من أن يلتجئ إلىٰ ستر الله سبحانه ويتوب إليه ويسأل الله مقلّب القلوب أن يغيّر نظر الناس بالنسبة إليه، يتوسل إلى الرياء والتزوير ويغطّي علىٰ ذنبه بالرياء.

الدرجة الثانية: أن يكون غرضه نيل حظّ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة،

كالذي يظهر الحزن ويشتغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الأموال، فإن كان من التجار أو من أهل الكسب يكون مشترى متاعه أكثر، أو أنه يرغب في نكاح امرأة شريفة، كالذي يرغب أن يتزوج بنت عالم عابد، فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته، فهذا رياء محظور لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول، فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه ولكنه قبيح، وحقيقته هي الشرك. وتحديد السلطنة المطلقة للحق تعالىٰ في عباده.

الدرجة الثالثة: أن لا يقصد نيل حظ أو إدراك مال أو نكاح، ولكن يظهر عبادته خوفاً من أن ينظر إليه بعين النقص، فلا يعد من الخاصة والزهاد، ويُعتقد أنه من جملة العامة، كالذي يمشي إلىٰ الصلاة أو إلىٰ المسجد مستعجلاً، فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة، مع أنها في ذات الوقت كانت راجحة شرعاً، ولكنه يتركها كي لا يقال إنه من أهل اللهو السهو لا من أهل الوقار. وكذلك إن سبق إلى الضحك أو بدا منه المزاح، فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار فيُتبع ذلك بالاستغفار ويتنفس الصعداء ويظهر الحزن ويقول: ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه، والله يعلم منه أن لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك، وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين

الاحتقار لا بعين التوقير. وكالذي يرىٰ جماعة يصلون النوافل أو يتهجدون أو يصومون يوم الخميس والإثنين، على ما ينقل من إمام الأمة أنه أمر الشباب (حزب الله) بصوم هذين اليومين، فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بغير حزب الله، ولو خلا لنفسه لا يفعل شيئاً من ذلك. وكالذي يعطش يوم عرفة أو في الأيام التي يتأكد فيها الصوم، فلا يشرب خوفاً من أن يعلم الناس أنه غير صائم، فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجله، أو يدعىٰ إلى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم، وقد لا يصرّح فيقول: إني صائم، ولكن يقول لي عذر، وهو جمع بين خبيثين: فإنه يُري أنه صائم ثم يُري أنه مخلص ليس بمراءٍ، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائياً، فيريد أن يقال إنه سائر بعبادته، ثم إن اضطر إلى شرب، لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذراً تصريحاً أو تعريضاً، بأن يتعلّل بمرض يقتضي فرط العطش ويمنع من الصوم، أو يقول إني كنت اليوم عند فلان فكلفني بالأكل فأكلت، ثم قد لا يذكر ذلك متصلاً بشربه كي لا يظن به أنه يعتذر رياءً، ولكنه يصبر ثم يذكر عذره في معرض حكاية عرضاً مثل أن يقول: إن فلاناً محبٌّ للإخوان شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه، وقد ألح عليَّ اليوم ولم أجد بدًّا من تطييب قلبه،

ومثل أن يقول: إن أمي ضعيفة القلب مشفقة عليّ تظن أنّي لو صمت يوماً مرضت فلا تدعني أصوم، فهذا ما يجري مجراه من آفات الرياء فلا يسبق إلىٰ اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء في الباطن. ومن هذا القبيل ما يتفق كثيراً وقد رأيته غير مرة أن أحداً يتحدث: إني كنت عند فلان ليلة كذا؛ وفي سحرها أردت أن أقوم للتهجدفخفت أن يظن بي صاحب البيت أني أرائي فما قمت للصلاة، أو إني تركت العبادة في وقت كذا مخافة أن يقال عني إني مراءٍ، فهذا المسكين يرى نفسه بتركه الصلاة والعبادة مخلصاً لله تعالىٰ وفارّاً من الرياء مع أنه قد وقع فيه، والنفس والشيطان قد تسلّطا عليه، وبعبارة أوضح للإنسان في هذه المواقف حالتان: الأولىٰ أن يخاف إذا أتىٰ بصلاة عند أحد أو في مجتمع من الناس أن تكون صلاته ريائية فإنه أعرف بنفسه وضعفها، وأنها لا تستطيع أن تحافظ بإخلاصه في العلن كما كانت تحافظ في السرّ، ففي هذه الحالة تترك الصلاة لئلا يقع في الرياء.

والثانية أن يخاف من أن يتصوره الناس مرائياً، وإن اطمئن بنفسه أنها لا تأتي بالصلاة رياء بل تأتي بها خالصة لله، ففي هذه الحالة إذا ترك العبادة فيظهر أنه مراءٍ لا

يحب أن يعتقد الناس في حقه غير الخلوص، فترك العبادة في الحالة الأولى لله، وفي الحالة الثانية للنفس وهواها، فإن النفس تحب أن تحسّن سمعتها عند الناس، وهذا هو حبُّ الحياة والشرف، فالمخلص لله إذا رأى من نفسه الرغبة بالصوم المستحب مثلاً فليصم ولا يلتفت إلى ما قيل فيه، وإذا لم يَرَ من نفسه الرغبة فلا يصم ولا يبال بما قيل فيه. قل الله ثم ذرهم. أما المخلص فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه، فإن لم تكن له رغبة في الصوم وقد علم الله ذلك منه، فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله فيكون ملتبساً، وإن كانت له رغبة في الصوم لله قنع بعلم الله ولم يشرك فيه غيره.

تنبيه علمي لقلع مادة الرياء من الأستاذ الإلهي الإمام الخميني دام ظلّه:

قال دام ظله: إنَّا نذكر في المقام شيئاً لعلَّه يكون مؤثراً لهذا المرض القلبي، وهو أنه طبقاً للبرهان ووفقاً للمكاشفة والعيان، والأحاديث الواردة عن المعصومين عليهم السلام، وكتاب الله العظيم، وكما أن عقولنا أيضاً تصدقه فإن الله تبارك وتعالىٰ لإحاطة قدرته على جميع الموجودات، وبسط سلطنته على جميع الكائنات، وإحاطة

قيّوميَّته على كافة الممكنـاتِ، فقلوب جميع العبـاد تحت تصرفه وقدرته وفي قبضة سلطتنه، وليس لأحد التصرف في قلوب العباد من دون إذنه القيّـومي وإجازتـه التكوينية، ولا يكون ذلك أبداً، حتى أن أصحاب القلوب أيضاً ليس لهم التصرف في قلوبهم بدون إذنه تعالىٰ وتصرفه، وقـد أخبر عن هـذا في القرآن الشـريف وأخبـار أهـل البيت عليهم السلام إشارة وكناية وصراحة؛ فـالله سبحانـه هو صـاحب القلب والمتصرف فيه، وأنت عبد ضعيف عاجز لا تستطيع أن تتصـرف في القلوب بدون تصـرف الحق تعـالى، بـل إرادتـه قاهـرة على إرادتـك وإرادة جميـع المـوجـودات؛ فحينئذ إن كان رياؤك لجلب قلوب العباد ورعايتها وتحصيل القدر والمنزلة في القلوب وحسن الشهرة فهذه كلها خارجة عن تصـرفـك، وإنهـا في تصـرف الحق تعـالىٰ. إن ربّ القلوب وصاحبها يعطفها إلى أي فـرد أراد، ولعل لِفِعلك هـذا يكون ردّ فعـل بعكس ما تـريده، فقـد سمعنا ورأينـا أشخـاصاً مـرائين بـوجهين وذوي قلوب غيـر طـاهـرة قـد افتضحوا عاقبة أمرهم، وأصابوا خلاف ما أرادوه، كما أشير إلىٰ ذلـك في الحـديث الشـريف في الكـافي عن جـراح المدائني عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل ﴿فَمَنْ كَانَ يَرجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحَاً وَلَا يُشْرِكْ

بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ قال: الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله، إنما يطلب تزكية الناس، يشتهي أن يسمع الناس فهذا الذي أشرك بعبادة ربه. ثم قال: ما من عبد أسرّ خيراً فذهبت الأيام أبداً حتىٰ يظهر الله له خيراً، وما من عبد يسرّ شرًّا فذهبت الأيام أبداً حتى يظهر الله له شرًّا.

فأنت يا عزيزي، اطلب حسن الشهرة من الله واسأل صاحب القلوب أن يجعل القلوب لك، اعمل لله واجعل عملك خالصاً له فإنه تعالىٰ يجعلك محبوباً للناس في هذا العالم، زائداً على المكرمات الأخروية والنعم الأبدية في عالم الآخرة، ويزيد وقعك في القلوب، ويجعلك عزيزاً في العالَمين الدنيا والآخرة، ولكن إن استطعت أن تخلص قلبك بالرياضات والمجاهدات عن هذا الحب أيضاً فافعل ليصفو قلبك، ويكون العمل من هذه الجهة صحيحاً، ويتوجه القلب إلىٰ الله، ويطهر الروح ويزول كدر النفس فماذا يفيدك حب الناس الضعفاء وبغضهم والشهرة عند العباد الفقراء؟ ولو فرضت فائدة أيضاً فهي في أيام قليلة، ويمكن أن يجرّ هذا الحب عاقبة أمرك إلىٰ الرياء، فتكون معاذ الله مشركاً أو منافقاً أو كافراً. ولو فرضنا أن يكون أمر

الإنسان في هده الدنيا مستوراً؛ ففي حضرة العدالة الربوبية وفي محضر عباد الله الصالحين وأنبيائه العظام وملائكته المقربين يفتضح ويخجل. ولا يجد مناصاً. إنك لا تدري ما الفضيحة في ذلك اليوم، وما يعقب الخجل في ذلك اليوم من ظلمات لا يعلمها غير الله. ذلك اليوم الذي يقول الكافر فيه ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً﴾ ولا يفيده، فأنت يا مسكين لأجل محبة جزئية وشهرة بلا فائدة عند العباد قد أعرضت عن تلك المكرمات وفاتك رضىٰ الله سبحانه، وجعلت نفسك مورداً لسخطه، والأعمال التي يمكنك أن تتحصل بها دار الكرامة والحياة الأبدية والفرح الدائم، وتسكن بها في أعلىٰ عليين من الجنّة استبدلتها بظلمة الشرك والنفاق، وهيأت لنفسك الحسرة والندامة والعذاب الشديد، وصرت سجّينيّاً كما في الرواية الشريفة في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام، قال النبي صلى الله عليه وآله: إن الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به، فإذا صعد بحسناته يقول الله عز وجل اجعلوها في سجّين إنه ليس إياي أراد به. إنني وإنك بهذه الحالة التي نحن بها لا نقدر أن نتصور السجّين ونفهم ديوان عمل الفجّار، ونرى صورة هذه الأعمال التي هي في السّجّين، ولكننا نرى حقيقتها حينما قصرت أيدينا وانقطعت العلاجات.

فاستيقظ يا عزيزي من نومتك، وأبعد عنك الغفلة والكسل، وزِن أعمالك بميزان العقل قبل أن توزن في ذلك العالم، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب، واجلُ مرآة قلبك من الشرك والنفاق ومن أن تكون ذا وجهين، ولا تدع أن يرين قلبك برين الشرك والكفر فيبتلىٰ بنار الآخرة، لا تدع أن يتبدّل نور الفطرة بظلمة الكفر، لا تدع أن تضيع فطرة الله التي فطر الناس عليها، ولا تخن هذه الخيانة بأمانة الله هذه، ونظف مرآة القلب كي يتجلىٰ فيه نور جمال الحق فيغنيك عن العالم وما فيه، وتشتعل في القلب نار المحبة الإلهية فتحرق كل حبّ لك في القلب سواه، ولا ترضىٰ باستبدال جميع العالم بلحظة منها، وتلتذ بذكر الله لذّة تكون جميع اللذات الحيوانية ملعبة دونها، وإن لم تكن أهلاً لهذا المقام، وتكون هذه المباني عجيبة في نظرك فلا تترك النعم الإلهية في عالم الآخرة، التي أخبر عنها القرآن المجيد وأحاديث المعصومين لأجل جلب قلوب المخلوقين، ولا تضيع تلك المثوبات، ولا تحرم نفسك من تلك الكرامات لشهرة موهومة أياماً قليلة، ولا تبع السعادة الأبدية بالشقاوة الدائمة.

الدعوة إلىٰ الإخلاص من الأستاذ الإلهي الإمام الخميني دام ظله:

قال دام ظله: ثم اعلم أن مالك الملك الحقيقي وولي النعمة الواقعي، الذي أكرمنا بهذه الكرامات، وهيأ لنا هذه التهيئة قبل أن نقدم إلى هذا العالم، من الغذاء اللطيف ذي المواد الصالحة المناسبة لمعدتنا الضعيفة، ومن مربٍّ وخادم بالحبّ الجبلّيّ الذاتي لتكون خدمته بلا منّة، ومن محيط وهواء مناسب وسائر نِعَمِهِ الظاهرة والباطنة، وهيأ لنا في عالم الآخرة وعالم البرزخ تلك التهيئة قبل أن ننتقل إليه. فهذا الولي للنعم طلب منا أن نخلّص قلوبنا له أو لكرامته، وتكون نتيجة ذلك أيضاً لنا وننتفع بذلك. ومع ذلك كله لا نستمع إلى أمره ونخالفه ونسلك طريقاً مخالفاً لرضاه! فأي ظلم عظيم ارتكبناه! وأي ملك الملوك جادلناه! وليست خسارته إلا لأنفسنا، ولا يضر سلطنته شيئاً ولا نقدر أن نخرج عن سلطنته وسلطته، فلا فرق لديه إن كنّا مشركين أو موحّدين، فإن كنا عارفين بالله أو متقين زكيّي الأنفس فلأنفسنا، وإن كنا كافرين ومشركين فنضر أنفسنا. إن الله غني عن العالمين وطاعتهم وإخلاصهم وعبوديتهم، فلا يضر ملكه عصياننا ولا ينقصه شركنا ونفاقنا، ولكن حيث أنه أرحم

الراحمين اقتضت رحمته الواسعة وحكمته البالغة أن يهدينا طرق الهداية، وسبل الخير والشر والحسن والقبح، وأن يرينا مزلّات طرق الإنسانية وزلل سبل السعادة، ولله تعالىٰ المنّة العظيمة الجسيمة في هذه الهداية، بل في تلك العبادات والإخلاص والعبودية، وما دام لم تنفتح بصيرتنا والعين البرزخية التي ترى الواقع لم نقدر أن نفهمها، وما دمنا نحن في هذا العالم الضّيّق المظلم والطبيعة المظلمة مقيدين بسلاسل الزمان ومحبوسين في سجن امتداد المكان المظلم لم نكن قادرين أن ندرك المنن العظيمة لله تعالىٰ، ولا يمكن لنا أن نتصور النعم الإلهية في هذا الإخلاص والعبادة وفي تلك الهداية.

إياك أن تظن أن لنا المنّة علىٰ أنبياء الله المعظم، وأوليائه المكرمين، أو علماء الأمة الذين هم هداة سعادتنا وخلاصنا وقد أنجونا من الجهل والظلمة والشقاوة، ودعونا إلىٰ عالم النور والسرور والبهجة والعظمة، وتحملوا المشقات والأتعاب ويتحملون لأجل تربيتنا ولأجل نجاتنا من الظلمات، التي هي من لوازم الاعتقادات الباطلة والجهالات المركبة، ومن الضغوط والعذاب التي هي صورة الملكات والأخلاق الرذيلة، ومن الصور الموحشة المُدْحِسَة، التي هي ملكوت الأعمال والأفعال القبيحة،

ولأجل أن ننال الأنوار والبهجات والمسرات، والروح والراحة والحور والقصور التي لا نقدر أن نتصورها، وعالم الملك مع ما له من العظمة أضيق من أن يتحمل حلة واحدة من حلل الجنة، وإن أعيننا هذه لا تطيق أن ترىٰ شعرة واحدة للحور العين، وكل تلك الصورة الملكوتية للعقائد والأعمال التي أدركها بالوحي الإلهي الأنبياء العظام، وبالأخص صاحب الكشف الكلي والدستور الجامع خاتم الأنبياء صلّىٰ الله عليه وآله وعليهم، ورأوها وسمعوها ودعونا إليها، ونحن المساكين كالأطفال الذين يخالفون أحكام العقلاء بل يخطئوهم، نجادلهم ونخالفهم دائماً، ولكن تلك النفوس الزكية المطمئنة، والأرواح الطيبة الطاهرة لشفقتهم ورحمتهم علىٰ عباد الله، لم يقصروا عن دعوتهم لجهلنا، وجرونا إلىٰ الجنَّة والسعادة بأية وسيلة من القوة والمال، دون أن يطلبوا منَّا أجراً وثواباً.

وما سأله رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله من الأجر وهو مودَّة ذوي القربىٰ، فصورة هذه المودة في عالم الآخرة لعلَّها تكون أنور صورة لنا، فهذا الأجر لنا أيضاً ولوصولنا إلىٰ السعادة والرحمة، فأجر الرسالة قد عاد إلينا ونحن استفدنا منه، ﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلىٰ

اللهِ﴾. فأية مِنّة لنا نحن المساكين عليهم، وأي نفع لإخلاصنا لهم، وأيَّة منَّة لكم ولنا علىٰ علماء الأمة، من العالم الذي يبين المسائل والأحكام، إلى النبي المكرم، إلىٰ ذات الحق المقدسة جل جلاله، فكل علىٰ حسب مرتبته ومقامه يهدينا إلىٰ طريق الهداية، فلهم علينا منن كثيرة لا نقدر علىٰ جزائهم في هذا العالم، وهذا العالم يليق بجزائهم، فلله ولرسوله ولأوليائه المنة كما قال تعالى: ﴿قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلْ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ واللهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ فإن كنا صادقين في ادّعائنا الإيمان فللَّه المنَّة علينا في هذا الإيمان، والله بصير بالغيب ويعلم صور أعمالنا وصور إيماننا وإسلامنا في عالم الغيب، وأما نحن المساكين فحيث إنا لا نعلم شيئاً من الحقيقة، فنتعلم المسائل من العالِم بها ونمنّ عليه، ونقلد العالم فنمنّ عليه، ونصلي الجماعة مع العالم فنمنّ عليه، مع أن لهم المنَّة علينا ونحن لا نعلم بها، فهذا المن منا عليهم يقلب أعمالنا ويجعلها في سجّين ويجعلها هباء منثوراً.

* * *

المقام الثاني للرياء

قد علم ممَّا ذكرنا عن الأستاذ الأعظم والمربِّي الأكبر للأخلاق الإمام الخميني دام ظله أن للرياء في أصول العقائد المقام الأول وهو أشد المراتب وأقبحها.

وأما المقام الثاني للرياء فهو عبارة عن الرياء في الملكات الفاضلة والأخلاق الحميدة وله أيضاً على ما ذكره دام ظله مرتبتان: الأولىٰ أن يظهر الخصال الحميدة والملكات الفاضلة لجلب قلوب الناس، والثانية أن يتبرأ من الخصال الذميمة والملكات الخبيثة لنفس الغرض، وقال الأستاذ في ذلك: إن الرياء في هذا المقام وإن لم يكن في اشتداد القبح كالمقام الأول ولكن بعد التنبه بأمر يمكن أن ينجر أمر المرائي في هذا المقام أيضاً إلى ما يكون كالمرائي في المقام الأول.

وهو أن للإنسان في عالم الملكوت صورة، ويمكن أن تكون تلك الصورة صورة غير إنسانية لأنها تابعة لملكوت النفس وملكاتها، فإن كنت ذا ملكات فاضلة إنسانية فتلك

الملكات تجعل صورتك الملكوتية إنسانية، إذا كان حشرك بتلك الملكات من دون أن تخرج عن طريق الاعتدال، بل الملكات تكون فاضلة حينما لا تتصرف النفس الأمارة فيها، ولا تكون قدم النفس دخيلة في تشكلها، بل كان شيخنا الأستاذ دام ظله يقول إن الميزان في الرياضة الباطلة والرياضة الشرعية الصحيحة هو قدم النفس وقدم الحق، فإن كان السالك يتحرك بقدم النفس، وكانت رياضته لتحصيل القوىٰ النفسانية وقدرتها وسلطنتها، فرياضته باطلة وينجرّ سلوكه إلىٰ سوء العاقبة، وإن الدعاوى الباطلة تظهر من هؤلاء. وإن كان السالك قد سلك بقدم الحق وكان طالباً لله، فرياضته حقة وشرعيَّة، والله سبحانه وتعالىٰ يساعده في سلوكه، على ما ينص في الآية الشريفة: ﴿والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ فينجرّ أمره إلىٰ السعادة ويسقط عنه النفسانية ويهجر عنه إراءة النفس، ومن المعلوم أن الذي يُري الناس أخلاقه الحسنة وملكاته الفاضلة النفسانية فقدمُه في هذا السلوك قدم النفس، وهو معجب بنفسه ومحبّ وعابد لها، وإنَّ حبّ الله لن يجتمع مع حبّ النفس، وإن رؤيته لن تجتمع مع رؤية النفس، وإنه أمر محال وخيال باطل، فما دامت مملكة وجودك ممتلئة بحب النفس، وحب الجاه والجلال والشهرة

والـريـاسـة على عبـاد الله، لا يمكن أن تكـون ملكـاتـك الملكات الفاضلة وأخلاقك أخلاقاً إلهية، لأن العامـل في مملكة وجودك الشيطان، وليست ملكوتك وباطنـك صورة الإنسان، فبعد انفتاح العين البرزخية الملكوتية تريك على غير صورة الإنسان كصورة أحـد من الشياطين مثـلاً، ومن المحال حصول المعارف الإلهية والتوحيد الصحيح لقلب يكون منزلاً للشياطين. فما لم تصر ملكوتك إنسانيـة، وما لم يطهر قلبـك من تلك الاعوجـاجات والإعجـابات، لم يكن منـزلاً للحق تعـالىٰ. ففي الحـديث القـدسي: «**لا تسعني أرضي ولا سمائي بل يسعني قلب عبدي المؤمن**».
فلا موجود من الموجودات هو مرآة لجمال المحبوب سوى قلب المؤمن. فـإن المتصرف في قلب المؤمن هـو الحق تعـالى لا النفس، وإن العامـل في وجوده هـو المحبوب. فقلب المؤمن ليس متمسكاً برأيـهومـهـذاراً، قلب المؤمن بين إصبعي الـرحمن يقلبـه كيف يشـاء، فـالمتصـرف في مملكة قلبه يـد الله، وتقليبه وتقلّبـه بالله تعـالىٰ. فأنت يـا مسكين العابـد نفسك، والمتصـرف في قلبــك الشيـطان والجهل، وقد قطعت يد التصـرف للحق تعالىٰ عن قلبك، فبأي إيمان تتوقع أن تكـون مورداً لتجلي الحق والسلطنـة المطلقة؟ فاعلم أنك ما دُمْتَ على هذه الحال، وما دامت

هذه الرذيلة وهي إرادة النفس موجودة في نفسك، فأنت كافر بالله ومنسلك في سلك المنافقين، وإن كنت تخال نفسك مسلماً ومؤمناً بالله.

موعظة بليغة عن الأستاذ الإلهي الإمام الخميني دام ظله:

فانتبه يا عزيزي من نومتك ودع الغفلة عنك، وحرِّم على عينيك نوم الغفلة، واعلم أن الله تعالى خلقك لنفسه كما في الحديث القدسي: يا بن آدم خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي، وفي الخطاب الذي تشرف به موسىٰ قال: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾. وجعل قلبك منزلاً لنفسه كما قال: لا تسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن؛ فإذاً أنت وقلبك من النواميس الإلهية، والله تعالى غيور، فإيَّاك أن تتجاسر على هتكك، وتتعرض لناموس الحق تعالى، وخف غيرة الله أن يفضحك في هذا العالم فضيحة كلما أردت أن تصلحها لا تقدر علىٰ إصلاحها، أنت في ملكوت نفسك وفي محضر الملائكة الكرام والأنبياء العظام تهتك الناموس الإلهي والأخلاق الفاضلة التي يتشبه بها الأولياء للحق تعالى، تسلّمها لغير الحق وتعطي قلبك عدوّ الحق تعالى، وتشرك في باطن نفسك وملكوتها، فاحذر أن يهتك الحق تعالىٰ ناموس ملكوتك ويفضحك

عند الملائكة المقربين، ومضافاً إلى ذلك يفضحك في هذا العالم، ويبتليك بفضيحة لا يمكن جبرانها، وهتك عصمة لا يمكن ترقيعها. إن الله سبحانه ستّار ولكنه غيور أيضاً، وهو أرحم الراحمين ولكنه أشد المعاقبين أيضاً، يستر ما لم يتجاوز الحد، وإذا تجاوز الحد فيمكن لا سمح الله بواسطة هذا العمل العظيم والفضيحة الأخلاقية تغلّب الغيرة على السَّتَّاريَّة، كما سمعته في الحديث الشريف فتنبه قليلاً وارجع وتب إليه، فإنه تعالى رحيم ويتعلل لرحمته، فإن رجعت إليه يستر عليك بغفرانه عيوبك السالفة ولا يطلع أحداً عليها، ويجعلك صاحب الفضيلة، ويجلّي فيك الأخلاق الكريمة، ويجعلك مرآة لصفاته، وينفذ إرادتك في ذاك العالم، كما أن إرادته نافذة في جميع العوالم، كما في الحديث في أهل الجنة: إن الملك يأتي إليهم ويستأذنهم في الدخول، فإذا دخل ناولهم كتاباً من عند الله بعد أن يسلم عليهم من الله، وإذا في الكتاب خطاب لكل إنسان يخاطب به:

من الحي القيوم الذي لا يموت إلى الحي القيوم الذي لا يموت، أما بعد، فإني أقول للشيء كن فيكون، وقد جعلتك اليوم تقول للشيء كن فيكون.

قال (ص): فلا يقول أحد من أهل الجنة لشيء كن إلا

ويكون[1]. فالأمر لك حينئذ إذا لم ترد أن يكون لك هـذا القدر، فأنت إذا سلمت إرادتك إلى الله، فيجعلك سبحانه مظهراً لإرادته متصرفاً في الأمور، وتكـون مملكة الإيجـاد تحت قـدرتك في الآخـرة، وهذا غيـر التفويض المحـال الباطل كما قرر في محله.

فـأنت أيها العـزيـز اختـر لنفسـك مـا شئت من هـذين الأمرين، فإن الله تعالىٰ غنيّ عنا وعن جميع الخلق، وغني عن إخلاصنا وإخلاص جميع موجودات العالم.

* * *

(١) أقول: أضف إلىٰ ذلك ما قالـه الشيخ العـارف في الفص الإسحاقي من فصوص الحكم: العارف يخلق بهمته ما يكون له وجود من خارج محـل الهمة، ولكن لا تزال الهمة تحفظه. ص ١٢٤ رسالة الوحدة لـ حسن زادة آملي وسند الرواية في الكتاب المذكور الفتوحات المكيـة المجلد الثاني ص ١٥٠ آخر بـاب ٧٣ سـؤال ١٥٤ طبع بولاق.

المقام الثالث للرياء

وهو الرياء المعروف عند الفقهاء رضوان الله عليهم وله أيضاً درجتان:

الأولى: أن يأتي الإنسان بالعمل والعبادة الشرعية أو بالراجحات العقلية بقصد أن يريها الناس ويجلب قلوبهم؛ سواء يقصد الرياء بذات العمل أو بكيفيته أو بشرطه أو بجزئه، على ما ذكره الأصحاب في الكتب الفقهية.

والثانية: أن يترك عملاً بذلك المقصود.

قال الأستاذ الأعظم الإمام الخميني:

اعلم أن الرياء في هذا المقام أكثر وقوعاً وشيوعاً من سائر المقامات، وذلك لأن الأكثر منا ليس أهلاً للمقامين المتقدمين، ولهذه الجهة لا يتعرض الشيطان لنا من ذاك الطريق، ولكن حيث أن عمدة الناس متعبدون وأهل للمناسك والعبادات الصورية، فيتصرف الشيطان في هذا المقام أكثر من غيره، وتكون مكائد النفس في هذه

المرحلة أكثر. وبعبارة أخرى، حيث إن الناس بنوعيتهم أصحاب الجنة الجسمانية، ويتحصلون المقامات الأخروية عن طريق الأعمال الحسنة وترك الأعمال السيئة، فالشيطان أيضاً يرد عليهم من هذا المدخل، ويشرب في قلوبهم جذور الرياء والتزوير في أعمالهم، حتى تنمو عليها الأغصان والأوراق، ويبدل حسناتهم سيئات، ويدخلهم جهنم والدركات عن طريق المناسك والعبادات، ويجعل الأسباب التي يمكن أن تعمر بها الدار الآخرة موجبة لتخريبها، ويعمل فيما هو من العلّيين عملاً تجعله الملائكة بأمر الله تعالى في سجّين، فالأشخاص الذين هم أهل هذا المقام وليس لهم زاد وراحلة سوى الأعمال، لا بد لهم أن يواظبوا أنفسهم كمال المواظبة وأن لا يفوت عنهم ـ لا سمح الله ـ هذا الأمر أيضاً، فيكونوا من أصحاب الجحيم بالمرة، ولا يكون لهم طريق إلى السعادة، وتغلق عنهم أبواب الجنان، وتفتح عليهم أبواب النيران ـ انتهى كلام الإمام دام ظله ـ.

* * *

مراتب الرياء من جهة الخفاء والظهور
وتحقيق دقيق في أمر الرياء

أعلم أن الرياء من حيث ظهوره وخفاؤه ذو مراتب: منها ما هو واضح، ومنها ما هو أوضح، ومنها ما هو خفي، ومنها ما هو أخفى.

ـ **المرتبة الأولى**: وهي أوضح المراتب: أن يعمل الانسان عملاً رياء بحيث لو لم تكن الجهة الريائية لم يكن يعمله .وهذا هو أوضح مراتبه ولا يحتاج إلى توضيح.

ـ **المرتبة الثانية**: أخفى من ذلك بقليل: هو أن تكون الجهة الريائية غير باعثة لأصل العمل بل الباعث على أصل العمل إنما هو الجهة الإلهية والقربة إليه تعالى، ولكن الجهة غير الإلهية تكون دخيلة فيه، بحيث يكون العمل مع مراعاة هذه الجهة أسهل منه بدونها، وذلك كمن يكون من عادته التهجد والقيام في الليل للصلاة، ويأتي به كل ليلة ولكن مع الكسل والنعاس في عينيه، ولكن إذا كان عنده ضيف فيقوم تلك الليلة عن فراشه بنشاط وسهولة، ولو لم يكن له رجاء ثواب الله لم يدع لذة النوم لحضور الضيف

فقط ، ولكن وجود الضيف كان مؤثراً فيه بمقدار أن يخفف عليه القيام والتهجد ، وتكون الصلاة عنده أسهل منها إذا كان وحده.

- **المرتبة الثالثة**: أن يكون الرياء فيها أخفى من الثانية أيضاً، وهي أن تكون الجهة غير الإلهية غير داخلة لا في أصل العمل ولا في سهولة الإتيان به، ولكن في نفس الوقت تكون مادة الرياء موجودة في القلب، ومن المعلوم أن مثل هذا الرياء لا يمكن أن يشّخص إلّا بالتجربة الدقيقة كالأمراض الجسمية المزمنة المشكوكة، حيث أنها بعد التحليلات الطبية يتبين وجود المرض، ويشرع الطبيب في علاجه، فكذلك في هذاالمرض الروحي لا بدّ من الدّقة فيه فإذا وجد أثر من المرض يعلم بوجود مادته، وعلامة ذلك أنه يُجرّب نفسه في وقت يطلع الناس على عبادته بالصدفة، فهل يجد في قلبه فرحاً وسروراً من هذا الاطلاع أو لا؟ فإنّه ربما يصدر العمل من إنسان بخلوص النية ولا يقصد فيه رياء أصلاً، بل يجتنب عن التظاهر به ويكرهه، ولكنه في نفس الوقت إذا علم به أحد بحكم الصدفة يسّر بذلك وكأنه يستريح بعلمه من تعب ذلك العمل، فهذا الفرح والسرور علامة لرياء مكنون في نفسه ومختف في

باطنه يرشح منه السرور لأنه لو لم يكن له توجه إلى غير الله ولم يعتن للناس، فلا معنى لفرحه عند علمهم بعمله، والفرح كالنار المختفية في الحجر التي تظهر وتطلع عند إصابة الحجر الحديد، فاطلاع الناس وعلمهم بالعمل بمنزلة إصابة الحجر الحديد يظهر الرياء المكنون، فحينئذ إذا لم يكن لهذا الشخص ردّ فعل عند هذه اللذة أي عند ظهور السرور في قلبه، ولم يوبّخ نفسه لذلك ولم يؤدّبها ولم يلقها بكراهة، فتكون هذه اللذة كغذاءٍ لمادة المرض، فتنمو بنمو غير محسوس، ويكون أثر ذلك النمو أنه يوجد في نفسه بالتدريج اقتضاء إيجاد سبب يكون موجباً لاطلاع الناس على عمله، كالتكلم حول الموضوع وإلقاء الكلام عرضاً، فمثلاً: إذا كان من المهتجدين يتكلم عن كيفية برودة الهواء أو حرارته آخر الليل، أو عن شيء مثل ذلك، حتى يُفهم غيره أنه كان مستيقظاً في ذلك الوقت.

ولعله أخفى من ذلك أيضاً: أن لا يتكلم بكلام يكون متضمناً لإفهام العمل لا تعريضاً ولا تصريحاً، ولكن يعلم ذلك من زيّه وهيئته وشمائله، كنعاس فيه وانخفاض في صوته وذبول في شفتيه؛ أو أنه لا يراقب نفسه في السجود ليتجافى عن الأرض فيؤثّر السجود في جبهته، ويكون في

عمق ضميره مبتهجاً بذلك وأن فيه أثراً ظاهراً للعبادة أو أنه يكـون في مجلس العزاءِ للحسين عليـه السلام أو مجلس الدعاء، وبعد انقضاء المجلس لا يزيل عن عينيه الدمـوع كـاملاً بحيث لا يبقى من البكـاء أثر في عينيـه، بل يـزيل الـدموع بمقـدار يبقى أثره ويجلب النـظر من النـاظـرين، وعلامات من هذا القبيل وأخفى من ذلك أن لا يكون فيـه شيء من الأمـور المذكـورة، بمعنىٰ أنه قـد يأتي بـالعمل خالصاً ولا يرغب في أن يطلع عليه أحد ولا يحب ظهوره، ولكنه مع ذلك يتوقع من الناس أن يبدؤوه بالسلام ويكرموه ويقابلوه بالبشاشة والتوقير، وأن يثنوا عليه، وأن ينشطوا في قضـاء حوائجـه، ويسامحـوه في البيع والشـراء، وإذا ورد مجلسـاً يوسعـوا له في المكـان، فإن قصـر أحد في هـذه الأمـور ثقل ذلـك علىٰ قلبه ويستبعـده في نفسه، فكـأنـه يتقاضىٰ الاحترام من النـاس للطاعة التي أخفـاها، بحيث أنه لو لم يكن قد سبق منه تلك العبـادة لما كـان متقاضيـاً ذلك، ولا يستبعد تقصير الناس في حقه، وبنظري أن مثل هـذا له جـذور من العجب أيضاً، فـإنـه يـطلب ذلـك في الحقيقة من الله سبحانه، وأنه تعالىٰ لماذا لم يلق محبة هذا الإنسان في قلوب الناس حتى يحترموه، مع أنه أتى بالعمل الخالص! وبالجملة ما لم يكن وجود العبـادة كعدمهـا في

كل ما يتعلق بالخلق، ولم يقنع بعلم الله، لم يكن خالياً من الرياء أخفى من دبيب النمل، بل من العجب أيضاً، ونتكلم فيه إن شاء الله.

ويحتمل أن يكون هذا المقدار من الرياء محبطاً للأجر والثواب، ولا يخلص من هذا النوع من الرياء إلا عباد الله المخلصين، فإنه ليس للشيطان عليهم سلطان، ولعله تكون إشارة إلى ذلك ما روي عن علي أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إن الله عز وجل يقول للقراء يوم القيامة: ألم يكن يرخص عليكم السعر؟ ألم تكونوا تُبتَدَؤون بالسلام؟ ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج؟ وفي الحديث: لا أجر لكم قد استوفيتم أجوركم.

وقد نقل عن عبد الله مبارك أنه قال: روي عن وهب بن منير أنه قال: إن رجلاً من السّواح قال لأصحابه: إنا إنّما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، فنخاف أن نكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال من أموالهم؛ إن أحدنا إذا لُقي أحب أن يعظم لمكان دينه، وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه، وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص عليه لمكان دينه، فبلغ ذلك ملكهم، فركب في موكب من الناس فإذا السهل

والجبل قد امتلأ من الناس، فقال السائح: ما هـذا؟ قيل هذا الملك قد أظلك، فقال للغلام: ائتني بطعام فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر، فجل يحشو شدقه ويأكل أكلاً عنيفاً. فقال الملك: أين صاحبكم؟ فقالوا: هذا، قال كيف أنت؟ قال: كالناس، وفي حديث آخر: بخير، فقال الملك: ما عند هذا من خير، فانصرف عنه. فقال السائح: الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لي ذام.

نعم يا عزيزي إن المخلصين كانوا خائفين من الرياء الخفي، ويجتهدون في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة حرصاً منهم على إخفائها، أكثر من حرص الناس على إخفاء أعمالهم السيئة وفواحشهم، كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة، فيجازيهم الله يوم القيامة بإخفائهم هذه على ملأ من الناس.

هؤلاء المخلصون علموا وتيقنوا أن الله سبحانه لا يقبل إلا الخالص، فإنه قال: **﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ﴾** وأن يوم القيامة يوم فاقتهم وحاجتهم إلى العمل الصالح، فإنه يومٌ لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وقد مثل لذلك أحد العلماءِ مثلاً يقول:

إن مسافري البوادي إذا توجهوا إليها فلا يستصحبون مع

أنفسهم إلا النقد الخالص الرائج، لأنهم يعلمون أن الحاجة في البادية أشد، وأهلها لا يقبلون إلا الخالص من النقد.

فكذلك أرباب القلوب، يشاهدون يوم القيامة والزاد الذي يتزودونه من التقوى، ويعلمون أن خير الزاد التقوى، فيأتون بالأعمال نقّية من الرياء، ويتّقون من جميع مراتب الرياء.

نكتة قرآنية:

إن القرآن يذكر في قصة يوسف وإخوته أنهم بعدما جاؤوا إلى مصر وطلبوا من يوسف الكيل والمتاع، يقول القرآن: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا العِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ﴾.

يقول أحد العرفاء: إنه ليس من الصحيح أن نفكر أن يوسف إنما اتهم أخاه بالسرقة ليأخذه ويبقيه عنده، لأنه إذا كان غرض يوسف إبقاء أخيه عنده فلا يستلزم ذلك أن يتّهمه بهذه الصورة البشعة ويذهب بماء وجهه ويسقطه عند العامة بأنه رجل سارق، رغم أنه ابن نبي الله، بل كان يمكنه أن يأخذه بعذر آخر ولا يمس كرامته، وإن كان لا بد

فكان من الممكن أن يقوم بهذا العمل في الخفاء، في لقاء شخصي لا في مشهد من الناس بـالأذان والإعلام، فيؤذّن مؤذّن أيتها العير إنكم لسارقون؛ فما الموجب لهذا الإعلان في العير التي فيها الكنعانيون، وهم سيرجعون إلى كنعان، وستكـون سـرقــة ابن نبي الله محـور البحث في جميــع المجـالس والمحافـل، ويتحدّث عنهـا الرجـال والنسـاء، وتـذهب كـرامـة بيت لا يعـرف النــاس فيـه إلاّ الشــرف والروحانية، فلا بد من أن يكون سرّ في هذا الأمر.

يقول هذا العارف: السرّ في ذلك أن الوصول إلى العزة الحقيقية الإلهية غير ميسّر إلا بالذلة عند الناس، وإنما قيدنا العزة بالحقيقة، لأن المناصب والمقامات عند الناس ليست عزة حقيقية، بـل العزة الحقيقيـة في الوصـول إلى جناب القرب من الله، وبعبارة أخرى هي جوار الله وصحبـة رب العالمين في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وصحبـة عباد الله هي صحبــة الله. من أحبكـم فقــد أحـب الله، ومن أبغضكم فقد أبغض الله، ومن أراد الله بدأ بكم، ومن زار أخاه في الله قال الله عز وجل: إياي زرت... وهذه العزة لا تتيسر إلا بشروط أعظمها الذلة عنـد الناس. وإن شئت قلت: أعظم الموانع من السير إلى الله والوصول بفناء الله

حب الجاه والرفعة عند الناس، فما دام القلب متعلقاً به لا يستطيع صاحبه أن يصل إلى المقصود، كما في الرواية: ما ذئبان ضاريان بغنم، اشتد أحدهما من أوله والآخر من آخره، بأضرّ في دين الرجل من حب الشرف والجاه. ولذلك كانت الرئاسة الدنيوية مرفوضة في نظر الأولياء، وكانوا يبغضونها، كما قال مولى المتقين «أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر.... ولألفيتم دنياكم هذه أهون عندي من عفطة عنز» فلا بد للسالك أن ينزع هذا الحب من قلبه، ولو بإسقاط نفسه من أعين الناس، إذا كان لا يأمن آفات نفسه وشرورها، كما أن قطع عضو من أعضاء البدن يجوز بل يجب عند الخوف على صحة بقية الأعضاء، ولذلك نقل الفاضل النراقي في معراج السعادة أن بعض العلماء كان يقرأ القرآن عند مريديه ومخلصيه عمداً بكيفية يزعمون أنه لا علم له وأنه رجل عامّي؛ وارتكاب الضرر القليل لخير كثير جائز عقلاً وشرعاً، ولهذا المعنى شواهد كثيرة في حالات السالكين إلى الله وإشارات في أشعارهم.

يقول أحد العرفاء: إني رأيت في المنام شخصاً لم أعرفه، وأعطاني ورقة وأمرني بتوقيعها، وأنا وقعتها من دون أن أعلم ما كتب فيها أو أطلع على مضمونها، فلما وقّعتها

قال الذي أعطاني الورقة: إن حديثنا صعب مستصعب، لا يحتمله إلا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد امتحن الله قلبه بالإيمان، فقرأ هذا الحديث وقال بلا فصل اختار الذل. فانتبهت من نومي وعلمت أني قد وقّعت وثيقة ذلّي بين الناس، كي أنال بتحّمل تلك الذلة تحمل الأحاديث الصعبة وأسرار أهل البيت عليهم السلام، ولهذا المطلب ذيل طويل فنتركه لمجاله ولأهله.

وبالجملة فإن شوائب الرياء الخفي كثيرة لا تحصى، ومهما أدرك الإنسان من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء، فإنه لمَّا كان قاطعاً طمعه عن البهائم والأطفال الرضع، فلذلك لم يبال حضروا أم غابوا، اطّلعوا على عبادته أم لم يطلعوا، فإذا كان مخلصاً قاطعاً طمعه عن الناس بالكلية لاستحقرهم في علمهم بعبادته، لأنه يعلم بأنهم أيضاً كالصبيان لا يقدرون له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب، بل لا يقدرون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وهنا لتوضيح المقصد لا بد من طرح سؤال لأن المسألة مهمة جداً: وهو أنا نرى الأكثر من الناس إن لم يكن كلهم إذا عرفت أعمالهم الحسنة وطاعاتهم يفرحون بذلك؛ فهل

هذا الفرح والسرور ممدوح في نظر الشرع أم مذموم؟

والجواب أنه ليس ممدوحاً على الإطلاق وليس مذموماً كذلك، بل هو ممدوح في موارد ومذموم في أخرى وإليك تفصيله:

أما المحمود منه ففي أربعة موارد

الأول: أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لما اطلع عليه الناس فليتذكر أن الله سبحانه بمقتضى اسمه «يا من أظهر الجميل» قد أظهر جميله فيستدل بذلك على حسن صنع الله به وكمال لطفه له، فإنه يستر الطاعة والمعصية، ولكن الله بجميل عنايته يستر عليه المعصية ويظهر له الطاعة، وهذا لطف عظيم من الله سبحانه في حقه، فيكون فرحه بجميل نظر الله له لا بحمد الناس والمنزلة في قلوبهم، فكأنه يرى بذلك أن الله بفضله ورحمته قد قبل عمله فيفرح لذلك.

﴿قُلْ فَبِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾. (يونس ٥٨).

الثاني:

أن يكون فرحه من جهة أن الله سبحانه إذا أظهر جميله وستر قبيحه في الدنيا فسوف يفعل ذلك في الآخرة أيضاً،

فإن الله هو رب الآخرة والأولى، بل رحمته في الآخرة أوسع منها في الدنيا كما أشير إلى ذلك في الأحاديث، فكأنه يقول بلسان حاله ما قاله الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه: «اللهم وإذ سترت عليّ ذنوباً في الدنيا فأنا أحوج إلى سترها منك في الآخرة». وبالجملة يكون فرحه في الأول بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل، وفي الثاني التفات إلى المستقبل كما ورد في الحديث: «ما ستر الله على عبد ذنباً في الدنيا إلا ستر عليه في الآخرة».

الثالث:

أن يكون فرحاً من جهة أنه يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة، فيكون له زيادة أجر وثواب؛ كما أنه لو كان آتياً بالعمل علانية بهذا القصد لم يكن مخالفاً للخلوص، فله أجر السر بما قصده أولاً، وأجر العلانية بما أظهر الله تعالى له واقتدى غيره به في الطاعة ثانياً، والفرح بمثل ذلك جدير، فإن ظهور مخايل الربح لذيذ وموجب للسرور لا محالة.

الرابع:

أنه حينما يرى أن المطّلعين يحمدونه على الطاعة،

فيكون فرحاً ومسروراً بأنهم مطيعون لله ويحبّون الطاعة، وتميل قلوبهم إلى الأعمال الحسنة، إذ من الناس من يرى أهل الطاعة فيمقته أو يحسده أو يذمه أو يهزأ به أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمده عليه، فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله وطيب نفوسهم، وعلامة الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم إياه، بل أكثر كما لا يخفى.

وأما المذموم فهو أن يكون فرحه لحصول المنزلة له في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعّظموه، فهذا مكروه ومذموم والله العالم. /

موعظة بليغة للأستاذ الإلهي الإمام الخميني دام ظله:

كثيراً ما يتّفق أن المرائي لا يلتفت هو أيضاً إلى أن الرياء قد نفذ في أعماله، وأن أعماله رياء ولا تساوي شيئاً، وذلك لأنّ مكائد النفس والشيطان دقيقة ورقيقة، وصراط الإنسانية دقيق ومظلم، بحيث ما لم يتفحص الإنسان الفحص الكامل لم يلتفت ماذا يفعل.

إن الإنسان يظن أن أعماله خالصة لله ولكنها للشيطان، إن الإنسان بما أنه مفطور على حب النفس فيحجب حب

النفس عليه معايبه، فمثلاً تحصيل علم الدين الذي هو من الطاعات والعبادات المهمة، ربما يبتلى الإنسان بالرياء في هذه العبادة العظيمة وهو لا يلتفت، فإنه ـ لما ذكرنا من وجود الحجاب الغليظ: حجاب حب النفس ـ يحب أن يحل مشكلة علمية في محضر العلماء والرؤساء على نحو لا يكون ذلك الحل لأحد غيره، ويكون هو متفرداً في فهمه، فكلّما يبين المسألة بياناً شافياً ويجلب أنظار أهل المجلس يكون أشد ابتهاجاً، وإذا عارضه أحد فيحب أن يغلبه ويخجله وينكّس رأسه عند الناس، ويفرض على الخصم كلامه حقاً كان أو باطلاً، وبعد أن يغلب الخصم يشعر في نفسه تدلّلاً وتفضيلاً. وإن اتفق أن أحداً من الرؤساء يصدقه في كلامه فهو نور على نور، والمسكين غافل عن أن المكانة وإن حصلت له عند العلماء والفضلاء، ولكنه سقط عن عين ربه ومالك الملوك في جميع العوالم، وقد جُعل هذا العمل بأمر من الحق تعالى في سجّين.

وهذا العمل الريائي كان مختلطاً بمعاصٍ شتّى أيضاً: كفضيحة المؤمن وإذلاله، وإيذاء الأخ الإيماني وإهانته وهتكه أحياناً، وكلّ ذلك من الموبقات، وسبب مستقل لأن/

يصير الإنسان جهنّمياً. وإذا فرضنا أن النفس تضع فخها أمامك وتقول لك: إن غرضي هو تبيين الحكم الشرعي وإظهار كلمة الحث الذي هو من أفضل الطاعات، وليس غرضي إظهار الفضيلة والتفاخر، فاستفسرها في باطنها أنه لو بيّن هذا الحكم الشرعي صديقي الذي هو مثلي في درجته العلمية، ويكون حل هذه المعضلة على يده، وكنت مغلوبة في ذاك المجلس، أفلا يتفاوت لك الحال؟ فإن كان كذلك فأنت صادقة في دعواك وإن أتتك النفس عن طريق المكر ولم تترك الخديعة وقالت: إن لإظهار الحق فضيلة وله ثواب عند الله، وأنا أريد أن أفوز بتلك الفضيلة وأعمّر دار ثوب الله فقل لها: لو فرضنا أن الله سبحانه أعطاك تلك الفضيلة في حالة المغلوبية وتصديقك الحق، فهل تطلبين أيضاً الغلبة على خصمك؟ فعند الرجوع إلى باطنك إن وجدت أنك تحبّ الغلبة أيضاً والشهرة عند الفضلاء بالعلم والفضيلة، وهذا البحث العلمي كان من أجل حصول المنزلة في قلوبهم، فاعلم أنك مراء في هذا البحث العلمي الذي هو من أفضل الطاعات والعبادات، وهذا العمل كان لأجل حب الجاه والشرف الذي هو أضرّ على إيمانك من ذئبين في غنم غاب عنها راعيها كما في الرواية. فيلزم لك حيث أنك من أهل العلم وتتكفل

الإصلاح وأنك هادي سبيل الآخرة وطبيب الأمراض النفسية أن تصلح أولاً نفسك وتسلم مزاج نفسك، حتى لا تكون من العلماء بلاعمل،وحالهم معلوم.

اللهم طهّر قلوبنا عن كدر الشرك والنفاق، وصفّ مرآة قلوبنا عن زين حب الدنيا الذي هو منشأ هذه الأمور كلّها، وكن مرافقاً لنا، وساعدنا نحن المساكين المبتلين بهوى النفس وحب الجاه والشرف في هذا السفر الخطير، وهذا الطريق ذي العقبات والضيّق المظلم، إنك على كل شيء قدير.

ومن العبادات المهمة في الإسلام صلاة الجماعة، وفضل الإمامة فيها أكثر؛ فلذا ينفذ الشيطان فيها بأكثر من غيرها. وعدوانه للإمام أكثر فهو بصدد أن يمنعه عن هذه الفضيلة ويفرغ عمله من الإخلاص، فيورده السجين ويجعله مشركاً بالله جل جلاله، فيدخل في قلب أئمة الجماعات من الطرق المختلفة مثل العجب ومثل الرياء، وهو إراءة الناس هذه العبادة لتحصيل المنزلة في القلوب، والاشتهار بالعظمة والعلوّ، فمثلاً يرى أن فلاناً المتعبد قد حضر في صلاته، فيزيد في خضوعه ويجلبه إلى نفسه بالطرق المختلفة والحيل الكثيرة ليوقعه في فخّه، فيذكره

في مجالسه أو بنحو آخر ليُعلِمَ الناس أن فلاناً المتعبد يحضر في جماعتي، ويجد في قلبه محبة لهذا الشخص/ الذي حضر في صلاته، ويُظهر له الحبّ والإخلاص بدرجة لم يُظهرها لله تعالى وأوليائه لحظة في عمره، خصوصاً إذا كان الحاضر في الصلاة من التجار المحترمين، وإذا حضر في صلاته لا سمح الله أحد من الأشراف نتيجة ضلالة الطريق، ولحق بصف جماعته فتكون المصيبة أعظم. والشيطان في نفس الوقت لا يترك الإمام الذي جماعته أقل عدداً، فيحضر ويلقي إليه أن تفهم الناس: بأنّني تركت الدنيا وأصلّي في الجامع الصغير للمحلّة مع الفقراء والضعفاء، فهذا الإمام أيضاً كسابقه، بل أسوأ حالاً منه، لأنه ينمي في قلبه رذيلة الحسد أيضاً، ويثمر شجرته، فحينما لم يكن له نصيب من الدنيا فيأخذ الشيطان منه حظه الأخروي أيضاً، ويجعله خاسراً في الدنيا والآخرة.

وهذا الشيطان لا يتركني ولا يترككم بينما لم تحصل لنا إمامة الجماعة، لا إعراضاً عنها بل لقصور أيدينا عنها، فيحرّكنا أن نخدش جماعة المسلمين ونطنعهم ونقترح عيوباً للجماعة، ونحاسب حرماننا عن الجماعة انعزالاً

عنها وإعراضاً عن الدنيا، ونعرّف أنفسنا منزهة عن حب النفس والجاه، فنحن أسوأ حالاً من الطائفتين السابقتين، فليست لنا الدنيا التامّة للطائفة الأولى ولا الدنيا الناقصة للطائفة الثانية ولا الآخرة، علماً بأننا لو تمكّنا لكان طلبنا الجاه وحبّنا الشرف والمال أكثر من تلكما الطائفتين.

إن الشيطان لا يكتفي بإمام الجماعة ولا تخمد نار شهوته بصيرورة الإمام جهنّمياً فيدخل في صفوف المأمومين.

فحيث أن الصف الأول أفضل، وميامن الصفوف أفضل من مياسرها، فتكون هدفه الأول، فإنّ الشيطان يأخذ بيد المتعبد المسكين ويخرجه من بيته مع بعده عن محل الجماعة، فيقعده في الطرف الأيمن من الصف الأول، ويشرع في وسوسته بأن يُعلم الناس هذه الفضيلة التي نالها، وذاك المسكين أيضاً من دون أن يتوجّه لإغوائه يظهر فضل نفسه بغمزة ودلال، ويبرز الشرك الباطني ويدخل عمله في السجين.

ثم يدخل الشيطان سائر الصفوف، فيحرّك أهلها أن يلمزوا الصف الأول ويرموا المتعبد المسكين الجالس في

الصف الأول بسهام الطعن والشتم وينزهوا أنفسهم من أطواره. وربما يشاهَد أن الشيطان آخذ بيد شخص محترم، وخصوصاً إذا كان من أهل العلم والفضل، فأجلسه في الصف الآخر، ليظهر للناس بأنّي مع مالي من المكانة في الناس أو في العلم، ولا ينبغي لمثلي أن يقتدي بمثل هذا الإمام،ولكن لإعراضي عن الدنيا وتركي الهوى النفساني حضرت جماعته، ومع ذلك جلست في الصف الأخير أيضاً. فأمثال هذا الشخص لا يشاهد في الصف الأول أبداً، إن الشيطان لا يكتفي بالإمام والمأموم فحسب، بل يلتصق بلحية بعض المنفردين فيأخذ بلجامه ويجره من البيت أو السوق فيبسط سجادة بغمزة ودلال في زاوية من زوايا الجامع، ولا يرى العدالة لأي إمام، ويطوّل ركوعه وسجوده أمام الناس، ويصلي بأذكار طويلة، فهذا الشخص مضمر في باطنه بأن يفهم الناس: بأنني من كثرة قدسي واحتياطي أترك الجماعة كي لا أبتلي بالصلاة مع إمام غير عادل. هذا الشخص مضافاً إلى أنه معجب ومراءٍ فهو جاهل بالمسائل الشرعية أيضاً، لأن مرجع تقليد هذا الشخص لعلّه لا يعتبر في صحة الاقتداء أكثر من حسن المظاهر،ولكن عدم اقتدائه ليس من هذا الباب، بل لإراءة الناس وتحصيل المنزلة في قلوبهم، وهكذا بقية أمورنا

تحت تصرف الشيطان. وذاك الملعون أينما وجد قلباً كدراً يـأوي إليه ويحـرق الأعمال الـظاهـرة والبـاطنـة، ويجعله جهنمياً من طريق الأعمال الحسنة. انتهت الموعظة البليغة للإمام الخميني.

* * *

بيان علاج القلب من داء الرياء علمياً وعملياً

إن لبعض علماء الآخرة كلاماً في المقام فأُتيَ به هنا ملخّصاً وبتوضيح منا:

قد عرفت أن الرياء محبط للأعمال وسبب للمقت عند الله، وأنه من الكبائر المهلكات، فلا بد أن تشمر عن ساعد الجدّ، وبالمجاهدة وتحمّل المشقة تقلع هذه الشجرة من القلب بجذورها، فإن الوصول إلى مدارج الإنسانية العالية غير ميّسر بدون تحمّل المشاق، كما إن الخلاص من الأمراض الصعبة لا يمكن إلا بشرب الأدوية المرّة؛ وهذه المجاهدة وإن كانت تشقّ أولاً لكنها في ميدان العمل وبالتدريج ترتفع مشقّتها تماماً.

وليعلم أن الرياء أصله من حبّ الجاه وحبّ الجاه إذا حلّل يرجع إلى ثلاثة أصول:

١ ـ حب المحمدة، فإن الإنسان يحب أن يحمد ويثنى عليه ويلتذ في استماع الثناء.

٢ ـ الفرار من الذم، فإن الإنسان يكره أن يكون مورداً للذم ويتأذى ويتألم من استماع مذمته.

٣ ـ الطمع فيما في أيدي الناس.

فهذه الثلاثة هي التي تكون سبباً للرياء غالباً:

فربما يشاهد أنّ إنساناً لا يرغب في الثناء ولا يشتهي الحمد، ولا يمد عينه إلى ما متع به غيره، ولكنه لا يطيق اللوم والذم، فيأتي بعمل ريائي، كرجل بخيل إذا رأى غيره يشارك في الخير ويبذل المال في سبيله، فهو واقع بين الأسخياء وهم يتصدقون بالمال الكثير، فإنه يتصدق بالقليل كي لا يوصف بالبخل. أو كشاب بين الشباب المتعبدين المشغولين بالصلاة والدعاء، فإنه أيضاً يصلي ويدعو لئلا يذّم بالكسل والبطالة، ومن العلماء من لا يشتهي محمدة الناس له ولكن لا يطيق أن يعرف بقلّة العلم، فإنّه إذا سئل عن مسألة لا يعلمها أسرع إلى الإفتاء بغير علم، ولا يوطن نفسه أن يسأل عنها غيره الذي يعلمها، مخافة أن ينسب إلى الجهل، وبالجملة قد يقدر الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ولا يقدر على الصبر على ألم الذم.

فعلى الإنسان المعالج هذه الأصول الثلاثة أن يعلم أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع

ولذيذ، إما في الحال وإما في المآل، فإذا علم أنه لذيذ في الحال ولكنه ضارّ في المآل سهل عليه قطع الرغبة عنه، كمن يعلم أنّ العسل لذيذ ويشتاق أكله ولكن إذا بان له أن فيه سمّاً أعرض عنه بسهولة، فكذلك في مورد البحث، فإن العبد مهما عرف أن الرياء فيه المضرّة وأنه يفوته صلاح قلبه وما فيه من حرمان التوفيق في الحال، وفوت المنزلة في الآخرة والمآل، وما يتعرض له من العقاب والمقت والخزي، حيث ينادى على رؤوس الأشهاد يا فاجر يا غادر يا مراءٍ يا مشرك، أما استحييت إذ اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا، وراقبت قلوب الناس ولم ترقب محضر الحق سبحانه، وتحبّبت إلى العباد بما يبغض الله، وتزّينت لهم بالشين عند الله، وتقربت إليهم بالبعد عن الله، وتحمدت إليهم بالتذمّم عند الله، وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله، أما كان أحد أهون عليك من الله؟! نعوذ بالله من هذا الخزي والفضيحة، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

فمهما تفكر العبد في هذا الخزي، وقابل ما يحصل له من العباد والتزّين لهم وهو المنزلة عندهم عن طريق الرياء، ولعلّها لا تحصل له بما يفوته في الآخرة وما يواجهه

من الخزي والعار، علم أن الرياء نار قد أحـرقت حسناتـه وجعلها في السجين، فربما كان قد نال بهذه الحسنة التي أفسـدها بـالريـاء علو الرتبـة عنـد الله، ويصـاحب النبيين والصديقين، وقد أخرجه الرياء عن زمرتهم وردّه إلى صف النعال. هذا مـا مع يتعـرض له في الـدنيا من تشتت الهمّ بسبب ملاحظة القلوب، فإن رضا النـاس غايـة لا تدرك، فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق آخر، ثم أيّ غرض لـه في مدحهم وإيثـار ذم الله لأجـل حمدهم، ولا يـزيـده حمدهم رزقاً ولا أجلاً، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته؟ فيا أيها المرائي الذي أوجب الطمع الرياء في عملك اعلم بأن الله سبحانه هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق إلا الله، ومن طمـع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة، وإن يصل إلى المراد لم يخل عن المنّة والمهانة، فكيف تترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد قد يصيب وقد يخطئ ، وإذا أصاب فـلا تفي لذّتـه بألم منّته ومذلته؟!

ويا أيها المرائي مخافة الذم فاعلم بأن ذم الناس لك لا يعجّل أجلك ولا يؤخره، ولا يجعلك من أهل النار إن كنت من أهـل الجنـة، ولا يبغضـك إلى الله إن كنت محمـوداً

عنـده، ولا يزيـدك مقتاً عنـد الله إن كنت ممقوتـاً عنـده، فالعباد كلهم عجزه لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فلا كمال في مدحهم ولا نقصان في ذمهم،كما قال شاعر بني تميم: إن مدحي زين وإن ذمي شين، فقال له رسول الله «ص»: كذبت ذاك الله، إذ لا زين إلا في مدحه ولا شين إلا في ذمه، فأي خير لك في مدح الناس وأنت عند الله مذموم، وأي شر لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود؟

وبالجملة فبالتفكر في هذه الأمور يرجى أن ينصرف قلبه إلى الله، ويتخلص من مذلة الرياء ومقاساة قلوب الخلق، وتنعطف من إخلاصه أنوار على قلبـه ينشرح بهـا صدره، وينفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنسه بالله، ووحشته من الخلق، واستحقاره للدنيا واستعظامه للآخرة، وسقط محل الخلق عن قلبه وانحل داعية الرياء وتذلّل لـه منهج الإخلاص.

* * *

العلاج العملي للرياء

إن التأمل والتدبر في الأمور التي ذكرناها، وإن كان له تأثير قوي في معالجة هذاالمرض، ولكن لا ينبغي الاكتفاء بالمعالجة العلمية لمثل هذا الداء الخطير، بل لا بد أن يراقب المرض عملياً أيضاً، والدواء العملي هو أن يعوّد نفسه على إخفاء العبادات وإغلاقه الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتى يقنع قلبه بعلم الله واطلاعه على عباداته، ولا تنازعه نفسه إلى طلب علم غير الله. وقد روي أن بعض أصحاب أبي حفص الحدّاد ذمّ الدنيا وأهلها فقال: أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيها، لا تجالسنا بعد هذا. فلم يرخص في إظهار هذا المقدار لأن في ذم الدنيا نوعاً من دعوى الزهد، وهذه الدعاوى غالباً ما تكون عن رياء، ولذلك صار هذا التلميذ مورداً لعتاب الأستاذ. فلا دواء للرياء مثل الإخفاء، وذلك وإن كان يشقّ في بداية المجاهدة، لكن إذا صبر عليها مدة بالتكلّف، فتدركه الألطاف الإلهية ويشمله حسن التوفيق، فيهون عليه ذلك ويسقط ثقله بتأييد الله وتسديده.

وإليك أيها القارىء الكريم بعض ما ورد من سيرة أئمة الهدى الذين هم أطباء النفوس والأرواح.

روى المحدث القمي (ره): كان علي بن الحسين عليه السلام ليخرج في الليلة الظلماء فيحمل الجراب على ظهره وفيه الصرر من الدنانير والدراهم، وربّما حمل على ظهره الطعام أو الحطب حتى يأتي باباً باباً فيقرعه ثم يناول من يخرج إليه، وكان يغطي وجهه لئلا يعرفه الفقير ولما وضع على المغتسل نظروا إلى ظهره وعليه مثل ركب الإبل، وكان يعول مائة أهل بيت من فقراء المدينة.

وعن ابن عائشة قال: سمعت أهل المدينة يقولون: فقدنا صدقة السرّ حين مات علي بن الحسين عليه السلام. ولمّا مات وجرّدوه للغسل جعلوا ينظرون إلى آثار في ظهره فقالوا ما هذا قيل يحمل جربان الدقيق على ظهره ليلاً ويوصلها إلى فقراء المدينة سراً، وكان يقول إن صدقة السرّ تطفئ غضب الرب. وقال النبي «ص» : أعظم العبادة أجراً أخفاها[1]. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: من كنوز الجنة إخفاء العمل والصبر على الرزايا وكتمان

---

(١) سفينة البحار والمجلد الخامس عشر من بحار الأنوار.

المصائب[1]. وعنهم عليهم السلام: أن فضل عمل السر على عمل الجهر سبعون ضعفاً[2]. وغير ذلك من الروايات.

* * *

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

الموارد التي يرخص فيها إظهار العبادات

لا ريب في لزوم الإخلاص في العمل العبادي والطاعة المرضية لله تعالى، وهذا من الأصول المسلّمة الذي لا بد من مراعاته في جميع الموارد والحالات، ولا يكون شيء من المرجحات العقلية والشرعية مرجحاً للعمل الريائي، ولا يعتنى بما توسوس به النفس أحياناً: إن العمل الفلاني حيث إن فيه فائدة عظيمة فليؤت به رياء! فإن العمل الريائي لا يعطي صاحبه شيئاً بصريح القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمّا كَسَبُوا﴾.

مع المحافظة على هذا الأصل المسلم الشرعي نقول: إن إخفاء العمل وإن كان فيه فائدة الإخلاص والخلاص من الرياء ولكن من جهة أخرى أيضاً إذا أتي بالعمل علانية فيمكن أن يترتب عليه أيضاً فائدة وهي ترغيب الناس إليه وأن يقتدى بالعامل به وإن كان يهدّده الرياء، فلذلك إن

العمل في الحالتين قد أثني عليه في القرآن قال تعالى: ﴿إن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ والإظهار قسمان: أحدهما في نفس العمل وأن يؤتى به علناً، والآخر التحدث به بعدما أتي به خفاءً.

أما القسم الأول: فالحق فيه التفصيل بين ما لا يمكن أن يؤتى خفاء وبين ما يمكن ذلك فيه، فإن كان العمل مما لا يمكن إخفاؤه كالحج والجهاد والحضور في صلاة الجماعة وأمثالها فينبغي المبادرة إليه، وعدم إعطاء المجال للوسوسة فيه، فإن الإتيان بمثل هذه الأعمال علناً لا دخل له بباب التظاهر والرياء، بل فائدة المبادرة إلى هذه الأعمال هي ترغيب الناس إليها، ولكن الشرط فيها كما ذكرنا خلوها عن الرياء فيؤتى بها جهاراً.

بل ربما يكون لداعي في إخفاء هذا القبيل من العبادات هو الرياء كما أشرنا إليه سابقاً، وهو أن بعض النفوس تشتهي أن تكون له المنزلة في قلوب الناس وكي يعتقدوا فيه اعتقاداً حسناً، ولذلك في موارد من هذا القبيل، فالذي يعلم هو أيضاً أنه لا يمكن إخفاؤها وتبين لا محالة؛ يسعى في إخفاء مقدماتها، وذلك لأن الناس إذا اطلعوا على

العمل بعد ذلك ولا بد لهم من الاطلاع، فيعتقدون أن هذا الشخص إنما يعمل لله سبحانه، ولا يحب أن يطلع الناس إلى أعماله. فمثلاً إذا كان أحد يريد الحج فإنه يدري أنه لا يمكن إخفاء مثل هذا العمل عن الناس، لأن له غداً مواقف في مكة ومنى، وأعمال كالطواف وغيره سيراها جمع كثير، وله بعد الرجوع عن الحج زيارات للإخوان، فيعرف هذا العمل لا محالة، ولكنه إذا علم الناس به فيذكرون أنه كان مختفياً في تهيئة مقدماته فيحسبونه مخلصاً في أعماله ويعتقدون فيه اعتقاداً حسناً. فمثل هذا الشخص إما أحمق أو مراء محيل يريد أن يخفي رياءه أيضاً عن الناس.

وأما إن كان العمل مما يمكن فيه الإظهار كما يمكن فيه الإخفاء أيضاً كالصدقة والصلاة.... فلا بد في إظهاره مضافاً إلى عدم وجود الرياء في الإظهار، أن لا يترتب عليه ضرر. كإظهار الصدقة فيما إذا كان يؤذي المتصدق عليه، فحينئذ لا بد من إسرارها، فإن لم يكن فيه ضرر آخر من الإيذاء ونحوه فالأفضل هو العلانية، لأن فيها القدوة، وتدل على ذلك سيرة الأنبياء والأولياء، وقوله عليه السلام: فله أجرها وأجر من عمل بها. وقد روى في الحديث أن عمل السر يضاعف على عمل العلانية بسبعين ضعفاً، ويضاعف

عمل العلانية إذا استنّ به على عمل السرّ سبعين ضعفاً، فمهما انفك القلب عن شوائب الرياء وتم الإخلاص على وجه واحد في الحالتين، فلا شك أن ما يقتدى به أفضل لا محالة، وإنما يخاف ظهور الرياء، ومهما حصلت شائبة الرياء لم ينفعه اقتداء غيره وهلك به، فالسرّ حينئذ أفضل.

ولكن على من يظهر العمل أن يراعي الأمرين:

الأول أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به أو يظن ذلك ظناً، كالرجل في أهله، أو الشيخ في محلته، أو العالم في بلده، على اختلاف مراتب الأشخاص، وبعبارة أخرى: إنما تصحّ نية القدوة ممن هو في محل القدوة على من هو في محل الاقتداء به، وإلا فلا يكون في إظهاره فائدة وتفوته فائدة السر.

الثاني: أن يراقب قلبه فإنه ربما يكون فيه الرياء الخفي فيدعوه إلى الإظهار بعذر الاقتداء، وإنما شهوته التحمل بالعمل ليحرز مقام الاقتداء به، وهذه عقبة لا يجوزها إلا الأقوياء المخلصون، فلا ينبغي لغيرهم من الضعفاء أن يخدعوا أنفسهم فيهلكون ويُهلكون من حيث لا يشعرون، فإن الضعيف في هذه الورطة مثله مثل الذي لا يتقن السباحة، فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم فأقبل

عليهم ليتشبثوا بـه فينجيهم، فتشبثـوا بـه فهلك الضعيف وهلكوا. وهذه مزلة أقدام العباد والعلمـاء، فإن منهم من يتشبـه بالأقـوياء في الإظهـار ولكن لا تقـوى قلوبهم على الإخـلاص، فتحبط أجورهم بـالـريـاء، والتفـطن لـذلـك غامض، فإن أراد أحد أن يعرف كيد نفسه ويجربها: هـل إن قصده في إظهار العمل رواجه والترغيب إليه، أو أنه وقع في فخ النفس ومصيدة الشيطان؟ فمحك ذلـك أن يعرض على نفسه أنه لو قال له صادق من قبـل الله تعالى: أخْفِ العمـل حتى يقتدي النـاس بعالم آخـر أو عابـد غيرك من أقرانك، ويكون لك في السر مثل أجر الإعلان، فإن مال قلبـه إلى أن يكون هـو المقتدى بـه وهو المـظهر للعمـل، فليعلم أن باعثه الرياء دون طلب الأجـر ورغبة النـاس في الخير، لأنهم قد رغبوا في الخير بواسطة عمل عابد آخر، وقد نال أجره، بل وقد توفر عليه مع إسراره، فما بال قلبه يميل إلى الإظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق ومـراءاتهم؟ فليحـذر العبـد خـدع النفس فـإنهـا خـداعـة، والشيـطان متـرصـد، وحب الجـاه على القلب غـالب، وقلّمـا تسلم الأعمال الظاهرة من الآفات، فلا ينبغي أن يبدل بالسلامة شيئاً، والسلامة في الإخفاء، وفي الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا، فالأولى بنا وبجميع الضعفاء الحذر.

نقل عن بعض العلماء المرّوجين للمذهب: أنه رؤي في المنام بعد وفاته فسئل ما صنع بك؟ فقال: حينما وردت البرزخ نوديت يا فلان ماذا صنعت في دنياك؟ فقلت إلهي ألفت كتباً كثيرة لترويج الدين. فخوطبت بأنك في ترويجك الدين هل قصدت أن يروّج ديننا أو أن تكون أنت المروج؟ فتحيرت في الجواب. فلذلك ورد في الحديث: أخلص العمل فإن الناقد بصير بصير.

وأما القسم الثاني:

وهو أن يتحدث الإنسان بالعمل ويعلنه بعد الإتيان به في الخفاء. وهذا أيضاً كالأول، بل الخطر في هذا أكثر، لأن اللسان خفيف المؤونة في النطق ويتحرك بسهولة في الحكاية، وربما يزيد أو ينقص أو يبالغ، وللنفس لذة في إظهار الدعاوي لحبّها الذاتي لها؛ فعلى هذا فمن قوي قلبه وتمّ إخلاصه، وصغر الناس في عينه واستوى عنده مدحهم وذمّهم، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة في الخير بسببه، فيجوز التحدث بالعمل، بل هو مندوب إليه إذا صفت النيّة وسلمت عن جميع الآفات، لأنّه ترغيب في الخير، والترغيب في الخير خير، وخصوصاً أن الطباع مجبولة على حبّ التشبّه والاقتداء والتأثّر من المطالب

الملقاة إليها، فللتحدّث دور قوي في تأثر النفوس واقتدائها بالمحدث، بل ربما يكون إظهار المرائي للعبادة إذا لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس، ولكنه شر للمرائي؛ فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند الله! ولعل في الحديث المروي: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم» تكون إشارة إلى ذلك. فالتحدث بالعمل إذا خلص من الرياء حسن. وإن كانت هناك نكتة أيضاً شاهدناها من الأعاظم ونذكرها هنا:

وهي أن الرجال الإلهيين والمتخلصين من هوى النفس كانوا يتناهون في نقل المنامات والمكاشفات عن نسبتها إلى أنفسهم، وكانوا يقولون إني أعرف شخصاً يعمل كذا أو حصلت له مكاشفة كذائية مثلاً، وذلك لأن المقصود يحصل بذكر أصل العمل أو المكاشفة، ولا يحتاج إلى معرفة عامله أو صاحبها، إلا أن يكون لمعرفته أيضاً دور في التأثير والاقتداء، فعندئذ كانوا يعّرفون أنفسهم.

* * *

نصيحة للإمام الخميني ـ روحي فداه ـ لمن أراد أن يذّكّر

فصل:

فيا عزيزي دقق النظر في أمورك وحاسب نفسك في كل عمل من أعمالها، واستنطقها في كل حادثة، كي تعلم أنها لأيّة غاية تقبل على الخيرات والأمور الشريفة؟ ولماذا تحب أن تسأل عن مسائل صلاة الليل وتقرأ أذكارها للغير؟ هل قصدها أن نتعلم المسائل منها أو تُعلّمُها لله تعالى، أو أنها تريد أن تعرّف نفسها من المتهجدين؟ لماذا تريد أن يعرف الناس سفرها لزيارة المشاهد المشرفة، وحتى عدد سفراتها؟ لماذا لا ترضى أن لا يطّلع الناس على صدقاتها التي أعطتها في الخفاء، فتتوسل بوسائل حتى يجري الحديث في الصدقة فتعلن صدقتها للناس، فإن كان كل ذلك لله تعالى وتريد أن يقتدي بك الناس وتكون مشمولاً لقوله (ع): «الدال على الخير كفاعله». فإظهارك حينئذ حسن، فاشكر الله سبحانه بضميرك الصافي وقلبك الطاهر، ولكن كن على حذر أن لا تغرك النفس والشيطان

في مناظرتك معهما، ولا يفرضا عليك العمل الريائي بصورة مقدسة، فإن لم يكن الإظهار خالصاً لله فاترك الإظهار فإنه سُمعة، وهي من شجرة الرياء الخبيثة، ولا يقبل الله المنّان هذا العمل ويأمر أن يجعل في سجّين، فنعوذ بالله من مكائد النفس، فإنها دقيقة جداً، وكلنا نعلم إجمالاً أن أعمالنا ليست خالصة لله تعالى، فإنا لو كنا عباداً مخلصين فما لنا يتصرف الشيطان في أعمالنا هذه التصرفات؟ مع أنه عاهد الله سبحانه أن لا يتعرض لعباد الله المخلصين، ولا يمد يده إلى ساحتهم المقدسة، فإنه كما يقول شيخنا الأعظم دام ظله «بأن الشيطان هو الكلب الواقف على باب الله، والكلب لا يلهث على أصدقاء صاحب البيت ولا يؤذيهم، إن الكلب الحارس على الباب لا يتعرض على المأنوسين لرب البيت وإنما يمنع دخول البيت من لا يعرف صاحب البيت»[1].

فإذا رأيت الشيطان مشتغلاً بك فاعلم أن أعمالك ليست خالصة لله وليست لوجه الله. إن كنت مخلصاً لله فلماذا لم

(١) أقول: إن الأستاذ. روحي فداه - نقل هذا القول عن شيخه الجليل شاه آبادي (ره)، ولكني رأيته في كتاب مرصاد العباد للشيخ نجم الدين، والفضل لمن سبق.

تجر ينابيع الحكمة من قلبك إلى لسانك، مع أنك منذ أربعين سنة تأتي بالأعمال وتحسبها قربة إلى الله؟ مع أن الحديث: من أخلص لله أربعين صباحاً جرت ينابيع الحكمة من قلبه إلى لسانه؛ فاعلم أن أعمالنا ليست خالصة لله ولسنا متنبهين لذلك أيضاً، وهذا هو الداء العضال. فالويل لأهل الطاعة والعبادة، والجمعة والجماعة، والعلم والديانة، إذا فتحوا بصائرهم وقد أقامت سلطنة الآخرة سرادقها فيرون أنفسهم أسوأ حالاً من أهل المعاصي الكبيرة، بل من أهل الكفر والشرك؛ ويرون صحيفة أعمالهم أشد سواداً من صحيفة أعمالهم! الويل لمن يدخل جهنم بصلاته وطاعته. آه ممن تكون لصدقته وزكاته وصلاته صورة لا يتصور أقبح منها، فيا مسكين إنما أنت مشرك، وأما أهل المعصية هم الموحدون العاصون، والله تعالى يغفر للعاصين بفضله إن شاء الله، ولكنه قال: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به**﴾ إن مات بلا توبة، وفي الأحاديث الشريفة كما سمعت يقول المعصومون عليهم السلام: إن المرائي مشرك، فمن يرائي في رئاسته الدينية وفي إمامته، وتدريسه وتحصيله العلم، وفي صومه وصلاته، وبالجملة في أعماله الصالحة لحصول المنزلة في قلوب الناس فهو مشرك على لسان أخبار أهل العصمة

صلوات الله عليهم، ولا يشمله الغفران حسب الآية الشريفة، فيا ليتك كنت من أهل المعاصي الكبيرة، ومتجاهراً بالفسق ومهتكاً للحرمات الطاهرة، ولكن كنت موحداً غير مشرك بالله.

فيا عزيزي الآن تفكر في أمرك وخذ لنفسك علاجاً، واعلم أن الشهرة عند الناس الذين لا يسوون بشيء ولا تسوى بشيء، وتلك القلوب التي لو أكلتها عصفورة لم تشبع ليس لها قدر ولا تقابل بشيء، وليست لهذا المخلوق الضعيف أية قدرة، إن القدرة لا توجد إلا في الحضرة القدسية الربوبية فقط، وإن ذاك الجناب المقدس هو الفاعل على الإطلاق ومسبّب الأسباب، وإن المخلوقين لَو أرادوا أن يخلقوا ذباباً لن يقدروا على ذلك ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لن يستنقذوه منه. إن القدرة هي لله تعالى وهو المؤثر في جميع الموجودات، فاجتهد بكل تعب ورياضة أن تكتب بقلم العقل على صحيفة القلب أن لا مؤثّر في الوجود إلا الله، ولا فاعل في دار التحقق سوى الله، ومكّن في قلبك بكل وسيلة التوحيد الفعلي الذي هو أول درجة التوحيد واجعل قلبك مؤمناً مسلّماً لهذه الكلمة المباركة، واطبع على قلبك طابع لا إله

إلا الله، واجعله صورة لكلمة التوحيد، وأوصله إلى مقام الاطمئنان، ونبّهه أن الناس لا يضرّون ولا ينفعون وإنما النافع والضارّ هو الله سبحانه، وأزل عن بصيرتك هذا العمى، فإنه يخاف أن تكون ممن يقول رب لم حشرتني أعمى، وأن تحشر أعمى يوم تبلى السرائر، إن إرادة الله قاهرة على جميع الإرادات، فإن اطمأن قلبك إلى هذه الكلمة المباركة، وسلمته إلى هذه العقيدة؛ فيرجى أن تكون لك العاقبة، وتنقلع جذور الشرك والرياء والكفر والنفاق عن قلبك./

واعلم أن هذه العقيدة مطابقة للعقل والشرع، وليس فيها توهم للجبر، وإن كان من الممكن أن يرميها إلى الجبر من ليس له علم بمبادئها ومقدماتها، ولا تكون أسماعهم مأنوسة لبعض المطالب ولكنها لا ترتبط بالجبر أصلاً، فإن هذه هي التوحيد، والجبر شرك، وهذه هي الهداية، والجبر ضلالة، وليس المقام مناسباً لبيان الجبر والقدر، ولكن المطلب واضح عند أهله، وليس لغيره الورود في هذه المطالب، بل نهى صاحب الشريعة عن الدخول في هذه المطالب، وعلى أيّ حال، فاسأل الله الرحيم في كل الأحوال، وخصوصاً في الخلوات، بالتضرع والاستكانة

والعجز والمذلـة، أن يهديـك نور التـوحيد، وينـور قلبك بالبارقة الغيبية والتوحيد في العبادة، كي تتحرر عن جميع العالم، وترى كل شيء تافهـاً، واسأل بـالتضرع إلى تلك الذات المقدسة أن يجعل أعمالك خالصة ويهديك طريق الخلوص والمحبـة، وإذا حصلت حـالـة طيبـة، فـاذكـر بدعائك هذا العبد الضعيف البطال الخـالي عن الحقيقة، الـذي صرف عمـره في الهوى والهـوس، وصار قلبـه من كدورة المعاصي والأمراض القلبية، بحيث لا يقبل نصيحة ولا تؤثر فيه أيّـة آية وروايـة، وأي دليل وبـرهان وعـلامة، فلعله يهتـدي إلى طريق ينجيـه بدعـائك، فـإن الله لا يرد المؤمن عن بابه ويستجيب دعاءه.

وبعـدما ذكّـرناك هـذه المطالب، وكنت تعلمهـا أيضـاً فليست مطالب جديدة، فواظب قلبك مدة، ودقق أعمالك وفعالك وحركاتك وسكناتك، وفتّش خفايا قلبك، وحاسبه حساباً شديداً كمحاسبة أحد من أهل الدنيا شريكه، فاترك كل عمل تكون فيه شبهة الرياء والتملّق، مهما كان العمل شريفاً جداً، حتى أنك إذا رأيت الـواجبات لا تتـأتى منك خالصة في العلن فأتِ بها في الخفاء، مع أنه يستحب أن يؤتى بها علانية، وإن كان قل ما يتفق أن يكون الرياء في

أصل الواجب، بل يكون غالباً في خصوصياته ومستحباته وزوائده، وعلى أي حال طهر قلبك عن لوث الشرك بالجد الكامل والمجاهدة الشديدة، حتى لا تنتقل بهذه الحالة ـ لا سمح الله ـ عن هذا العالم، فتكون حالتك سيئة ولا ترجى لك النجاة بوجه من الوجوه، ويكون الله سبحانه، غضبان عليك، كما في الحديث الشريف في الوسائل عن قرب الإسناد بإسناده إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من تزيّن للناس بما يحب الله، وبارز لله في السر بما يكره الله، لقي الله وهو غضبان له ماقت.

وفي الحديث احتمالان: أحدهما أن يزين للناس أعماله الصالحة ويسر الأعمال القبيحة.

وثانيهما أن يظهر للناس ويريهم صورة عمله ويرائي في الباطن، وعلى كل حال يشمل الحديث الرياء؛ لأن الإتيان بالواجبات والراجحات من دون أن يقصد فيها الرياء لا يوجب غضب الرب، بل يمكن أن يقال إن الاحتمال الثاني أرجح، لأن إتيان الأعمال القبيحة علانية أشد قبحاً منها في السر، وعلى أي حال لا سمح الله أن يكون مالك الملوك

وأرحم الـراحمين غضبـان على الإنسـان، أعـوذ بـالله من غضب الحليم. انتهى كلامه الشريف دام ظله.

تنبيه

كمـا ذكرنـا مـراراً أن مكـائـد النفس كثيـرة والشيـطان بالمرصاد للإنسان ليأخذ منه رأس مـاله لـلآخرة ولـه حيل شتى لا تحصى، إلا أن الإنسـان كلما كـان أكثر اطـلاعـاً عليها فقد يفيـده ذلك في الخلاص عنهـا فنزيـد علىٰ ما مضىٰ:

إنه قد يتفق أن الإنسان يبيت مع أصـدقائـه العابـدين، فيقومون للتهجد فيصلون الليل كله أو بعضه ، ولعله أيضاً في حالته المعتادة من المتهجدين، ولكنه كان يقـوم قريبـاً من الفجر، فإذا رآهم انبعث نشـاطه للمـوافقة حتىٰ يـزيد على ما كان يعتاده، أو يصلي مع أنه كان لا يعتـاد الصلاة بالليل أصـلاً، وكذلـك قد يكـون في مجتمع يصـوم أهله فينبعث لـه نشاط في الصـوم، ولـولاهم لمـا انبعث هـذا النشاط، ففي موارد من هذا القبيل يطرح سؤال: هل هذا من الرياء ولا بد له أن يترك؟

والجواب إنه ليس كذلك على الإطلاق، بل له تفصيل تفترق فيه الموارد بعضها عن بعض، وذلك أن المؤمن بما

أنه مؤمن يرغب في عبادة الله وقيام الليل وصيام النهار، ولكن قد تعوقه العوائق ويمنعه الاشتغال، ويغلبه التمكن من الشهوات واللذائذ النفسية، فتأخذه الغفلة، وإذا صاحب أهل العبادة ربما تزول عنه الغفلة أو تندفع العوائق والأشغال فينبعث نشاطه للعبادة، فمثلاً يكون في منزله أكثر تمكناً من النوم والفراش الليِّن أو التمتع بزوجته أو المحادثة مع أولاده وأقربائه، أو الاشتغال بمحاسبة معاملاته اليومية، فتشغله في الساعات الأولى من الليل ولا يكون له نشاط للقيام في آخره،فإذا وقع في منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل مضافاً إلى أنه قد تحصل له البواعث على الخير، كمشاهدته أصدقاءه وقد أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا، وهم يناجون حبيبهم ويتلذذون بمناجاته، فتتحرك داعية أن لا يتأخر عنهم في ميدان العبادة، فينافسهم فيما هم فيه، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ولا ريب أن هذا ليس من الرياء بشيء، أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره المنزل أو لسبب آخر فيغتنم زوال النوم، وأما في منزله فيغلبه النوم، وربما يضاف إلى ذلك أنه في منزله على الدوام، ونفسه لا تسمح بالتهجد دائماً،ولكن تسمح به وقتاً قليلاً، فيكون ذلك سبب هذا النشاط، وكذلك الصوم، قد يشقّ عليه في منزله ومعه أطايب الأطعمة، ويشقّ عليه

الصبر عنها، فإذا أعوزته تلك الأطعمة فتنبعث داعيةالدين للصوم، فإن الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب داعية الدين، فإذا سلمت منها قويت الداعية، فالشيطان في مثل هذه الموارد يوسوس له بوسوسة الرياء ويقول: لا تعمل فإنك تكون مرائياً إذ كنت لا تعمل في بيتك، ولا تزد على صلاتك، فلا بد له أن لا يعتني بوسوسته ويقوم بالعمل ليستيئس الشيطان والنفس، ولا يعودان بأمثال هذه الوسوسة، وقد تكون رغبته ونشاطه لأجل رؤيتهم وخوفاً من ذمِّهم ونسبتهم إياه إلى الكسل، لا سيما إذا كانوا يظنون أنه من المتهجدين والمتعبدين، فإن نفسه لا تسمح بأن يسقط من أعينهم وتريد أن تحفظ منزلتها، وعند ذلك قد يقول الشيطان له على خلاف المورد الأول: صلِّ فإنك مخلص ولست تصلي لأجلهم بل لله، وذلك لأنك كنت تصلي كل ليلة، وإن كنت لا تصلي ليلة أو ليالي فلكثرة العوائق وإنما داعيتك الليلة هي زوال العوائق لا إطلاعهم، والتشخيص في الموردين أمر مشكل لغير ذوي البصائر، فإذا عرف أن المحرك هو جلب قلوب الناس، فإما أن يترك العبادة أو لا يزيد على ما كان يعتاده ولا ركعة واحدة، وإن عرف أن انبعاثه لارتفاع العوائق والمنافسة في رضى الله وطاعته فليغتنم الفرصة ويشتغل بعبادة ربه، وإذا اشتبه عليه

الأمر ولم يقدر على تشخيص الأمر فليعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لا يرونه؟ فإن كانت نفسه ساخية فليصل فإن باعثه الحق، وإن رأى أنه يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهمْ فليترك فإن باعثه الرياء.

وكذلك قد يحضر مجلس الدعاء فينظر إليهم فيأخذه البكاء خوفاً من الله، ولو سمع ذلك الدعاء وحده لما بكى، ولكن بكاء الناس يؤثر في ترقيق القلب وليس هذا من الرياء، بل قد لا يحضره البكاء فيتباكى، فهذا التباكي أيضاً قد يكون من غير رياء، بل يخشى على قلبه قساوة القلب حين رأى الناس يبكون ولا تدمع عيناه، فيتباكى تكلفاً، وذلك محمود وعلامة الصدق في ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على قلبه من القساوة فيتباكى أم لا؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم فليس خوفه من غلبة القساوة على قلبه، بل إنما خوفه من أن يقال إنه قاسي القلب، فينبغي أن يترك التباكي، وقد يكون أصل البكاء عن الحزن، ولكن تجيئه خاطرة الرياء في أثناء البكاء فيرفع صوته ويمدّه بالبكاء فتلك الزيادة رياء، فكان بكاؤه لله حدوثاً وللشيطان

بقاءً، وربما يدعوه الرياء إلى حفظ الدمعة على الوجه حتى ترى، بعد أن كان استرسالها من خشية الله، ولكن يحفظ أثرها على الوجه من أجل الرياء، وبالجملة إن للنفس والشيطان مكائد لا تحصى، وكما ورد في الحديث: إن للرياء سبعين باباً، مع العلم أن التعيين بالسبعين للمبالغة، ولعله ينفتح من كل باب أبواب، وفي الحديث: تعوذوا بالله من خشوع النفاق، ومعنى خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع، وإن كان لا يحتمل له معنى آخر. وفي دعاء سيد الساجدين عليه السلام: اللهم إني أعوذ بك أن تحسن في لامعة العيون علانيتي وتقبح لك فيما أخلو سريرتي، محافظاً على رئاء الناس من نفسي ومضيعاً لما أنت مطلع عليه مني، أبدي للناس أحسن أمري، وأفضي إليك بأسوأ عملي، تقرباً إلى الناس بحسناتي، وفراراً منك بسيئاتي، فيحل بي مقتك ويجب عليَّ غضبك، أعِذْني من ذلك يا رب العالمين.

* * *

ختام من مسك
(الحديث العلوي وبيان الامام الخميني دام ظله)

ونحن نختم هذه الأوراق بحديث شريف رواه الكليني (ره) في الكافي الشريف، عن مولى الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام، وروى الشيخ الصدوق (رض) مثله عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، أنه كان من جملة وصايا النبي صلى الله عليه وآله لعلي، والحديث هكذا بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام، قال، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

ثلاث علامات للمرائي: ينشط إذا رأى الناس، ويكسل إذا كان وحده، ويجب أن يحمد في جميع أموره.

قال الإمام الخميني دام ظله:

حيث أن هذه السيئة الخبيثة ربما تكون خفية لا يعرفها الشخص المبتلى بها أيضاً، ويزعم أن عمله خالص وهو في الباطن من أهل الرياء، فلهذا ذكروا لها علامة ليعرف الإنسان بها سريرته، ويكون في صدد العلاج:

إن الإنسان يشاهد من نفسه أنه إذا كان وحده لا يرغب

في الطاعات، وإذا أتى بعبادة تكلفاً أو على حسب عـادته لم يأت بها بنشاط ورغبة بل يأتي بها غير تامة وغيـر نقية، ولكن إذا حضر في المساجد والمجامع واشتغل بعبادة في محضر عام فيعملها بنشاط وعلاقة وسرور وحضور القلب، فيحب أن يـطول ركـوع صـلاتـه وسجـودهـا، ويـأتي بمستحباتها، ويحسن أجـزاءها وشرائطهـا، وإذا تنبه عقله لذلك وسأل نفسه عن سبب ذلك فتضع النفس فخها على أصول التقدس والتعبد، فتقول تعمية للإنسان: إن نشاطـك هـذا من جهة أن العبـادة في المسجد أكثر مثـوبـة، أو أن الصلاة مع الجماعة كذا وكذا، أو أنه إذا كان في مجتمـع غير المساجد تقول: إنه يستحب للإنسان أن يحسن عمله عند الناس ليقتدي به الناس ويتأسوا به ويرغبوا في الـدين فتغرر بالإنسان بأية وسيلة استطاعت، والحال أن هذا السرور والنشاط ليس منبعثاً إلا عن المرض القلبي المبتلى به هذا المسكين، وهو يحسب نفسه صحيحه معافاة وليست بحاجة للعلاج، إن المريض الذي يرى نفسه سالمـة غير مـريضة فـلا ترجى لـه الصحة، فهـذا الشقي في باطن ذاتـه ولبِّ سريرته يحب أن يُرِيَ عمله للناس وهو غافل عن ذلك، بل يظهر المعصية في صورة العبادة، ويجعل الرياء على شكل ترويج المذهب، فمع أنـه يستحب أن يؤتى بالمستحبـات

في الخلوات، فلماذا تحب النفس دائماً أن تأتي بها في العلانية؟ إنها تبكي من خشية الله في المجامع العامة بنشاط وبهجة، ولكنها في الخلوة مهما تكلفت لم تخرج من العين دمعة. لماذا يحصل الخوف من الله في المجامع فقط؟ إن الإنسان يبكي ويتضرع في آلاف من الناس في ليالي القدر، ويصلي مائة ركعة من الصلاة، ويقرأ دعاء الجوشن الكبير والصغير وأجزاء من القرآن الشريف من دون كسل، ولا يحس بالتعب في ذلك، ولكنه إذا صلى عشر ركعات في الخلوة يتعب من وجع ظهره ولا يفي بها حاله؟ إن الأعمال التي تصدر من الإنسان إن كانت خالصة لتحصيل رضا الله تعالى أو استجلاب رحمته، أو خوفاً من جهنم أو شوقاً إلى الجنة، فلماذا يحبّ أن يمدحه الناس، فيلقي إلى ألسنتهم سمعه ويتوجه إليهم بقلبه ليسمع أحداً منهم يمدحه؟ ليسمع أحداً يقول: إن فلاناً رجل متعبد مواظب على أوائل أوقات الصلوات، مراقب للمستحبات!
ليسمع أحداً يقول: إن فلاناً الحاج رجل أمين معتمد في معاملاته، وكذا وكذا. فإن كان النظر إلى الله تعالى فما هذا الحب المفرط؟ وإن كانت الجنة والنار داعيتك إلى هذا العمل فما هذا الحب؟ فتنبه إن هذا الحب من أغصان تلك الشجرة الخبيثة (الرياء) وكن في صدد إصلاحه ما

استطعت وخلِّص نفسك من أمثال هذا الحب.

ولا بأس من التنبه إلى أمر في المقام، وهو أن لكل من هذه الصفات النفسية - أعم من الملكات الحسنة والملكات السيئة - مراتب كثيرة، والاتصاف بمرتبة من الملكات الحسنة والتنزه عن مرتبة من الملكات السيئة ربما يكون مما يختص به العرفاء بالله وأولياء الله. وأما سائر الناس فهم على حسب ما هم فيه من المراتب، فالاتصاف بما هو منقصة بالنسبة إلى العرفاء والأولياء لا يكون بالنسبة إليهم منقصة، بل يكون كمالاً أيضاً بمعنى، وكذلك حسنات هؤلاء تكون سيئات للعرفاء والأولياء. والرياء الذي نتكلم فيه هو فعلاً من جملة تلك الصفات، فالخلوص من جميع مراتبه من مختصات الأولياء، وليس لغيرهم الشركة معهم في ذلك، واتصاف العامة من الناس بمرتبة منه ليس منقصة لهم حسب المقام الذي هم فيه. ولا يضر إيمانهم أو إخلاصهم، فمثلاً نفوس العامة من الناس بحسب جبلّتهم تميل إلى أن تظهر خيراتهم للناس وإن كانوا لم يفعلوها بنية الظهور. ولكن نفوسهم مفطورة بهذا الحب، وهذا لا يوجب بطلان العمل أو كفرهم ونفاقهم وشركهم، وإن كان هذا نقصاً للأولياء وشركاً ونفاقاً في نظر ولي الله أو العارف

بالله، والتنزيه من مطلق الشرك والخلاص من جميع مراتبه، أول مقام من مقامات الأولياء. ولهم مقامات أخر لا يناسب المقام ذكرها، حتى أن ما قاله المعصومون عليهم السلام: من أن عبادتنا عبادة الأحرار، أي تكون حباً لله تعالى لا طمعاً في الجنة ولا خوفاً من النار، فمن مقاماتهم المعتادة وهو أول درجة الولاية. ولهم عليهم السلام في عبادتهم حالات لا تسعها أفهامنا.

وبما ذكرنا يمكن الجمع بين الحديث السابق المروي عن رسول الله وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما وآلهما، والحديث الآخر لزرارة عن أبي جعفر عليه السلام كما رواه محمد بن يعقوب بإسناده عن أبي جعفر (ع) قال: سألته عن الرجل يعمل الشيء من الخير فيراه إنسان فيسره ذلك، قال لا بأس؛ ما من أحد إلا وهو يحب أن يظهر له في الناس الخير إذا لم يكن صنع ذلك لذلك. فإن حب المحمدة قد عدَّ في أحد الحديثين علامة الرياء وفي الحديث الآخر ينفي البأس عن السرور لظهور الخيرات، ووجه الجمع هو الاختلاف على حسب مراتب الأشخاص، وللجمع بين الحديثين وجه آخر أيضاً غضضنا عنه. انتهى كلام الأستاذ دام ظله.

أقول: ولعل الوجه الآخر في الجمع بين الحديثين أن يكون الحديث الأول ناظراً إلى حب المحمدة في حين العمل، وأنه علامة الرياء، والحديث الثاني ناظراً إلى حب المحمدة بعد الإتيان بالعمل.

أو أن حب المحمدة في الحديث الأول جعل علامة للرياء منضماً بالعلامتين الاخيرتين، كما يستظهر ذلك من العطف بالواو، فإنه ظاهر في اجتماع المعطوف مع المعطوف عليه،ولو كان كل واحد منها علامة للرياء لكان الأنسب أن يعطف (بأو)، وخصوصاً مع الالتفات إلى أن العلامتين الأوليين (أي النشاط إذا رآه الناس والكسل إذا كان وحده) لا بد وأن تلاحظا منضمتين ومجتمعتين حتى تكونا علامة للرياء، وإلا لو فرض أحدهما كالنشاط إذا رآه الناس وفي الخلوة أيضاً أو الكسل في كلتا الحالتين فليس علامة للرياء قطعاً، فإذا انضم حب المحمدة أيضاً إليهما تكون علامة قطعية للرياء وكاشفاً يقينياً عنه، وهذا بخلاف حب المحمدة وحده، فإنه ليس علامة للرياء كما يقوله الحديث الثاني.

أو نقول: إن الحديث الأول معناه أن المرائي بسبب ابتلائه بمرض الرياء يحب أن يحمده الناس في جميع

أموره، كما ينص بذلك الحديث ، وأما الرواية الثانية فهي على نحو الموجبة الجزئية، تشير إلى أن ظهور خير من إنسان إذا سره فلا بأس إذا لم يكن صنع ذلك لذلك. والله العالم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وقد تم تسويد هذه الأوراق بيد الفقير المفتاق إلى رحمة ربه السيد أحمد الفهري في اليوم العشرين من شهر رمضان المبارك في مدينة دمشق سنة ألف وأربعمائة وأربع من الهجرة. على مهاجرها الصلاة والسلام./

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

من دخله العجب هلك

الإمام الصادق (ع)

رسالة العجب

حجة الإسلام والمسلمين
آية الله السيد أحمد الفهري
ممثل الإمام الخميني في سوريا ولبنان

العجب

قبل أن نشرع في بيان معنىٰ العجب ومفاسده وخواصه وكيفية علاج هذه الصفة المذمومة ينبغي أن نمهد لذلك بشيء من القرآن وأحاديث أهل البيت عليه السلام .

أما العجب في نظر القرآن فتكفي في أهميته والنكبة التي توجبها هذه الصفة الخبيثة آيات من القرآن الكريم هي الآيات ١٠٣ ـ ١٠٥ ـ من السورة المباركة الكهف. يقول الله سبحانه : ﴿ **قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً . الَّذِينَ ضَلَّ سَعيُهُمْ في الحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً. أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ، فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ وَزْناً** ﴾ .

يستفاد من هذه الآيات الشريفة نكات لسنا في مقام ذكرها، وإنما نشير إلىٰ أن العجب بموجب هذه الآيات يكون سبباً لضلال السعي في هذه الدنيا والكفر بآيات الله ولقائه، وسبباً لحبط الأعمال الحسنة، فلا يبقى للعجب عمل ترجى النجاة به، ولذلك لا يقام له وزن يوم القيامة، وكفى بذلك مفسدة لهذه الصفة وخسراناً لصاحبها.

وأما العجب بحسب الروايات

ففي الكافي الشريف بإسناده عن علي بن سويد عن أبي الحسن (ع) قال : سألت عن العجب الذي يفسد العمل فقال : « العجب درجات منها أن يزيّن للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيعجبه ويحسب انه يحسن صنعاً ، ومنها أن يؤمن العبد بربه فيمّن علىٰ الله تعالىٰ ولله عليه فيه المنُّ » .

وفيه أيضاً عن الصادق عليه السلام قال : « إن الله تعالى علم أن الذنب خير للمؤمن من العجب ، ولولا ذلك ما ابتلي مؤمن بذنب أبداً .

وفيه عنه عليه السلام :«من دخله العجب هلك » .

وفيه أيضاً عنه عليه السلام قال : « إن الرجل ليذنب الذنب فيندم عليه ، ويعمل العمل فيسّره ذلك ، فيتراخىٰ عن حاله تلك ، فلأن يكون علىٰ حاله تلك خير له مما دخل فيه » .

وفيه عنه عليه السلام قال :«أتىٰ عالمٌ عابداً فقال له : كيف صلاتك ؟ فقال : مثلي يُسأل عن صلاته وأنا أعبد الله منذ كذا وكذا ؟ قال : كيف بكاؤك ؟ قال : أبكي حتىٰ تجري دموعي ، فقال العالم : إن ضحكك وأنت خائف

أفضل من بكائك وأنت مدل[1] ، إن المدل لا يصعد من عمله شيء» .

قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم : « ثلاث مهلكات : شح[2] مطاع ، وهوىٰ متّبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

وقال (ص) أيضاً : «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك ، العجب العجب» .

وقال ابن مسعود : الهلاك في اثنين : القنوط والعجب : القنوط من رحمة الله ، القنوط من النجاة ، القنوط من إصلاح النفس .

وإنما جمع ابن مسعود بين هذين لأن سعادة الإنسان رهينة سعيه وجدّه في الطلب ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إلاّ مَاسَعَىٰ ﴾ وما لم يشمّر الإنسان في طلب مقصوده ومقصده الأصلي لا ينال السعادة المطلوبة ، وهاتان الصفتان القنوط والعجب كل منهما له دور في بطء السعي نحو المقصود ، ويمنعان صاحبهما عن الطلب كما ينبغي ، أما

---

(١) الدلال : التغنج والتلوي

(٢) الشح : البخل والحرص .

القنوط فإن نفس القانط غير متهيئة لمتابعة مقصده ، ومن يقنط من إصلاح نفسه ، فلا يجّد في نجاتها فحسب ، بل ربما يقدم على عمل يكون أسرع في هلاكه، والقانط من إصلاح نفسه لا يبالي أن يرتكب أي جناية ، فلهذا جُعل القنوط من رحمة الله الواسعة من أكبر الكبائر ذنباً ، وأما العجب ، فحيث أن المعجب يعتقد سعادته وأنه قد نال مقصوده ومقصده ، فهو أيضاً يتوقف عن الجدّ والطلب .

وبعبارة أخرىٰ : الإنسان لا يطلب شيئاً موجوداً ولا شيئاً محالاً ، والسعادة في نظر المعجب موجودة وفي نظر القانط مستحيلة . وفي هذا المقام نكتفي بهذا المقدار من الكلام .

* * *

معنىٰ العجب

العجب بمعنىٰ رؤيـة النفس والإعجاب بهـا وبأعمـالها ، وهو حالة نفسانية نجدهـا في أنفسنا أحيـاناً ، والمعـاني التي ذكرت له في كتب اللغة أكثرها بيان لوازمه أو آثاره : كالزهو والكبر وإنكار ما يرد عليك (كما في المنجد) .

وهذه المعاني كما ترىٰ من لـوازم الحالـة التي ذكرنـاها في النفس ، وأمـا المعنىٰ الاصطلاحي للعجب في لسـان علماء الأخلاق فهو علىٰ ما يقوله بعض علماء الآخرة : هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم .

وقـال العلامـة المجلسي قدس سـره : العجب استعظام العمل الصالح واستكثاره ، وأمّا السرور به مع التواضع له تعالىٰ والشكر له علىٰ التوفيق لذلك فهو حسن ممدوح .

أقول :

ما قاله هذه المحدث الجليل من أن العجب هو أن يرىٰ الإنسان نفسه خارجاً عن حدّ التقصير إشارة إلىٰ أدب أشير إليه في الروايات ، منها ما في الكافي الشريف عن أبي الحسن

موسىٰ بن جعفر عليهما السلام ، أنه عليه السلام قال لبعض ولده : يا بني عليك بالجد ، ولا تخرجّن نفسك عن حد التقصير في عبادة الله عز وجل وطاعته ، فإن الله لا يعبد حق عبادته ، وهو كما قال رسول الله (ص) وهو أفضل ولد آدم وأعرفهم بالله وأعبدهم : « ما عرفناك حق معرفتك ، وما عبدناك حق عبادتك » وأيضاً في الكافي عن جابر أنه قال : قال لي أبو جعفر (ع) : « يا جابر لا أخرجك الله من النقص والتقصير » وهذا يعني أنه لا توجد فيك حالة ترىٰ نفسك عارية من النقص والعيب ولا تراك مقصراً في جنب الله .

ونقل المحدث الجليل العلامة المجلسي عن المحقق الخبير العالم الكبير الشيخ الأجل بهاء الدين العاملي رضوان الله عليه أنه قال : لا ريب أن من عمل أعمالاً صالحة من صيام الأيام وقيام الليالي وأمثال ذلك يحصل لنفسه ابتهاج ، فإن كان من حيث كونها عطية من الله ونعمة منه تعالىٰ عليه ، وكان مع ذلك خائفاً من زوالها طالباً من الله الازدياد منها ، لم يكن ذلك الابتهاج عجباً . وإن كان من حيث كونها صفته وقائمة به ومضافة إليه، فاستعظمها وركن إليها، ورأىٰ نفسه خارجاً عن حدّ التقصير ، وصار كأنه يمنّ علىٰ الله سبحانه بسببها ، فذلك هو العجب .

تفسير للإمام الخميني

وللإمام الخميني دام ظله في هذا التعبير نظر ، فإنه قال :

تفسير العجب على ما ذكره الشيخ الأجل بهاء الدين صحيح ، ولكنه لا بد أن يؤخذ العمل أعم من القلبي والقالبي ، وكذلك أعم من العمل الحسن والقبيح ، لأن العجب كما أنه يعرض على الأعمال الجوارحيه كذلك يرد على الأعمال الجوانحيه ويفسدها ، وكما أن صاحب الخصلة الحميدة يعجب بنفسه وخصلته ، كذلك صاحب الخصلة السيئة أيضاً ربما يعجب بنفسه أو بخصلته ، كما أشير بكليهما في الرواية الشريفة التي ذكرناها عن علي بن سويد عن أبي الحسن عليه السلام وفيها : «منها أن يزيّن للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيعجبه ، ويحسب أنه يحسن صنعاً ، ومنها أن يؤمن العبد بربّه فيمنّ على الله تعالى» . الحديث.

وإنما خصّص هذين بالذكر لأنهما مختفيان عن أنظار غالب الناس غالباً ، وليعلم أيضاً أن السرور والابتهاج الذي نفى الشيخ البهائي عن العجب وجعله حسناً فهو على حسب حال النوع . انتهى .

فمحصل نظر الإمام الخميني في كلام الشيخ ثلاثة أمور:

الأول :

إن الشيخ رحمه الله خصَّ العجب بأن الشخص يكون

معجباً بأعماله الجوارحيه من صيام الأيام وقيام الليالي وأمثال ذلك ، والظاهر أن مراده من أمثال ذلك غير ما ذكره من العبادات والإحسان وغيرها ، ولا ينظر إلىٰ الأعمال القلبية ، والعجب كما ذكرنا كما أنه يوجد في الأعمال الباطنية والقلبية ، كالإنسان يعجب بإيمانه وهو عمل قلبي وخضوع باطني في مقابل الحق ، ويعجب بإيمانه بالرسول فكأنه يمنّ به علىٰ الله ورسوله ، كما ذكر في الرواية المذكورة آنفاً . وهكذا يوجد العجب في الصفات والملكات النفسية، كالعجب بالعلم والشجاعة والسخاوة أمثالها.

الثاني :

إن الشيخ قدس سره مضافاً إلى أنه خصّ العجب بالأعمال الجوارحية خصه بالأعمال الصالحة أيضاً وقال « لا ريب أن من عمل أعمالاً صالحة . . يحصل لنفسه ابتهاج » والحال أن العجب لا يختص بالأعمال الصالحة بل ربما يحصل في الأعمال السيئة ، فكم من الكفار والمنافقين يعجبون بكفرهم ونفاقهم ، وأصحاب الملكات الرذيلة ينجر أمرهم الى أن يعجبوا بصفاتهم الخبيثة ، كما سنذكره إن شاء الله ، وأشرنا إلى ذلك في الرواية المذكورة آنفاً ، وهو قوله عليه السلام :أن يزيّن للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيعجبه.

هـذا نتيجـة تـدليس إبليس الخبيث وتلبيس النفس الخبيثة للإنسان .

الثالث :

من وجهـة نـظر الإمـام في كـلام الشيـخ أن السـرور والابتهاج الذي يحصل للإنسان عندما يعمل عملاً صالحاً ، إذا كان على ما قاله الشيخ من حيث كونها عطية من الله . . لم يكن ذلك الابتهاج عجباً ، فهذا المطلب بالنسبة إلى عامة الناس وعلىٰ حسب النوع وليس عاماً علىٰ جميع الأفراد ، فإنه يـوجد أفـراد في نوع الإنسـان من عباد الله المخلصـين وقد تخلصـوا عن النفس وهواهـا ، وقد عميت لهم عـين رؤيـة النفس بـالكليـة ، فـلا يـرون لأنفسهم عمـلاً حتىٰ يسـرّوا ويبتهجوا به ، فإنهم يرون أنفسهم مملوكة للمالـك الحقيقي وليس لهم حــول ولا قـوة من عنـــد أنفسهم ، وقـد فنيت إرادتهم في إرادة الله وهم كما ﴿**ضَرَبَ الله مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْـدِرُ عَلَىٰ شيَء**﴾ ومصـداق لقـولـه تعـالىٰ : ﴿ **بَـلْ عِبـادٌ مُكْـرَمُـونَ . لا يَسبِقُـونَـهُ بِـالقَـوْلِ** ﴾ هؤلاء المخلصـون لـو عـرضت لهم غفلة عن الله فـرأوا فيهـا عملهم ووجـدوا في أنفسهم سروراً وبهجة لاستغفروا الله من هذا السرور ، مع ماهم من المقام الرفيع عند الله ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقّربين .

درجات العجب ومراتبه

كما نقلنا عن الإمام دامت بركاته في الرياء وأن له ثلاث مقامات ولكل مقام درجتين وقد مرّ تفسيرهما، فللعجب أيضاً تلك المقامات والدرجات .

فالمقام الأول : العجب في العقائد ، و الثاني : العجب في الملكات ، والمقام الثالث : العجب في الأعمال . وللمقام الأول درجتان : الدرجة الأولى : العجب بالإيمان والمعارف الحقة ، والدرجة الثانية مقابلها : وهي العجب بالكفر والشرك والعقائد الباطلة ، والمقام الثاني أيضاً له درجتان الأولىٰ : العجب بالملكات الفاضلة والصفات الحميدة ، والثانية : وهي مقابلتها أي العجب بالأخلاق السيئة والملكات القبيحة. والمقام الثالث أيضاً ذو درجتين الأولىٰ : العجب بالأعمال الصالحة ومقابله الدرجة الثانية أي العجب بالأعمال القبيحة والأفعال السيئة .

مراتب العجب

قسم بعض علماء الآخرة العجب إلى مرتبتين وحاصل ما قال بتوضيح منا: إن العجب يوجد في الإنسان لأجل صفة يراها صاحبها كمالاً ، لا محالة ، وكلّ إنسان زعم في نفسه كمالاً سواء كان في العلم أو المال وسائر الكمالات فتحصل فيه حالات : منها الخوف من فقدانها ، وأن يسلب منه ذلك الكمال كُلاً أو بعضاً ، أو أن يحصل فيه نقص يكّدر صفاءه ، فلا يقال عجب لمثل هذه الحالة .

ومنها أن لا يخاف من زواله ، ولكن يكون فرحه بهذا الكمال بحيث أنه نعمة من الله تعالىٰ وينسبه إليه تعالىٰ لا إلىٰ نفسه ، فهذا الفرح والانبساط بالكمال أيضاً ليس بعجب .

ولكن للإنسان حالة ثالثة وهي التي تسمىٰ بالعجب ، وهي أن لا يخاف من زوال الكمال بل يفرح بوجوده وينبسط له وفي نفس الوقت يتعلق قلبه به ويفرح من جهة أنه كمال ورفعة ، لا من جهة أنه منسوب إلىٰ الحق تعالىٰ ومن عطاياه جل شأنه ، وليس له استقلال ومبدئية لهذا الكمال ، فإنه لو

اعتقد قلباً بأن الكمال نعمة من الله وأنه تعالىٰ يسلبه منه في كل آن أراد ، فمثل هذا الاعتقاد لا يدع للعجب مجالاً ليتطّرق إلى قلبه ، ولو فرض وجود العجب فيه ، فمثل هذا الاعتقاد والتذكر بأن الله سبحانه يأخذه منه متىٰ أراد يزيل العجب عن قلبه ، فبناء علىٰ هذا العجب عبارة من أن الإنسان يستعظم نعمة وكمالاً لنفسه ويتعلق قلبه به وينسىٰ نسبته إلى المنعم الحقيقي ، فمثل هذه الحالة هي المرتبة الأولىٰ من العجب. وإذا ارتقىٰ من هذه الحالة ورأىٰ في قلبه كأنَّ له حق علىٰ الله سبحانه، وله في جنابه مقام وقُرب، بحيث أنه يتوقع من الله سبحانه أن يعزّزه في الدنيا جزاء لعمله، وإن أصابه مكروه فيبعد في نظره، بحيث أنه لو أصاب هذا المكروه فاسقاً لما كان بعيداً في نظره بهذه الغاية، فهذه الحالة تسمىٰ دلالاً وتغنّجاً.

مثلاً قد يتّفق أنه يعطي لأحد شيئاً فيعظم هذا العطاء في نظره ويمنّ علىٰ المعطىٰ إليه ، فهذا الشخص معجب بعطائه ، فإذا استخدم المعطىٰ إليه بعد هذا العطاء ويكون له منه توقعات ، ويستبعد أن يخالفه ، فهذه الحالة تسمىٰ إدلالاً وتغنّجاً ، وهي مرتبة أعلىٰ من العجب، ففي كل دلال العجب موجود وليس العكس ، فيمكن أن يكون العجب

موجوداً بالإدلال لأن الميزان والمناط في العجب استعظام العمل ونسيان النعمة من دون أن يكون متوقّعاً للجزاء ، وأما الإدلال فيلازم توقع الجزاء الأكثر، فإذا كان أحد متوقعاً أن الله سبحانه يستجيب دعوته حتماً، ولا يحسب في باطنه أن يكون دعاؤه مردوداً، بل يكون رد دعائه موجباً لتعجّبه، والسؤال الباطني عن علّة عدم استجابة دعائه، أو أنه لا يتعجب من عدم استجابة دعاء الفاسق ولكنّه يتعجّب من عدم استجابة دعاءِ نفسه. فهذا المسكين مضافاً إلى عجبه له إدلال على الله تعالىٰ أيضاً[1].

وللأستاذ العظيم في علم الأخلاق الإمام الخميني دام ظله هنا بيان أوضح ونكات ودقائق أدق نترجمه ذيلاً : قال دام ظله :

اعلم أن للعجب في كل من الدرجات السابقة الذكر مراتب ، بعضها واضح والإنسان يتوجه إليه بأدنىٰ تنبه والتفات ، وبعضها دقيق ورقيق للغاية بحيث ما لم يفتّش الإنسان تفتيشاً كاملاً ولم يعلم بالمداقّة الصحيحة لا يستطيع أن يدركه ، وأيضاً بعض مراتبه أشدّ وأهلك من الآخر.

---

(١) وقد أشير الى ذلك في دعاءِ الأفتتاح ، يقول : فصرت أدعوك آمناً واسألك مستأنساً لا خائفاً ولا وجلاً ، مدلاً عليك فيما قصدت فيه إليك، فإن أبطأ عنّي عتبت بجهلي عليك . . إلى آخره .

المرتبة الأولىٰ

وهي أعلىٰ من الجميع وإهلاكها أكثر ، فهي حالة توجد في الإنسان بواسطة شدة العجب ، بحيث يمنّ علىٰ ولي نعمته ومالك الملوك بالإيمان أو بخصاله الأخرى ، ويزعم بأنها أوجدت بإيمانه سعة في مملكة الحق تعالىٰ ، وأحدثت في دينه رواجاً ، وأنه بترويجه الشريعة ، أو إرشاده وهدايته ، أو أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، أو بإجرائه الحدود، أو بمحرابه ومنبره، أوجد في دين الله غضاضة ، أو بسبب حضوره في جماعات المسلمين ، أو إقامته مجالس العزاء لأبي عبد الله الحسين عليه السلام ، حصل للدين رواج يمنّ به علىٰ الله وعلى رسوله الأكرم وعلى سيد الشهداء، ولو لم يُظهر هذا المعنىٰ ولكنه يمنّ بذلك في قلبه . ومن هذا الباب المنّة علىٰ عباد الله في الأمور الدينية ، كمنّته في إعطاء الصدقات الواجبة والمستحبة وإعانته للضعفاء والفقراء ، فيمنّ عليهم بذلك ، وربمّا تكون هذه المنّة مخفية لنفسه أيضاً (قد سبق شرح عدم منّة الناس علىٰ الله بل منّة الله عليهم في بحث الرياء)

المرتبة الثانية

هي أنه يدلل لله تعالىٰ بواسطة شدة العجب الذي في

قلبه ، وهذا الدلال غير المنّة ، وإن كان بعض لم يفّرق بينهما ، وصاحب هذا المقام يزعم نفسه محبوباً لله تعالى، ويجعلها منسلكة في المقّربين والسابقين ، وإذا ذكر اسم من الأولياء أو جرىٰ حديث من المحبوبين والمحبّين أو السالك المجذوب يحسب نفسه أحدهم في قلبه ، ويمكن أن يتواضع رياء ويظهر خلاف ذلك ، أو لإثبات هذا المقام لنفسه ينفيه عن نفسه علىٰ نحو يكون النفي ملازماً للإثبات ، وإذا ابتلاه الله ببلاء فيضرب طبل (البلاء للولاء) .

المدَّعون للإرشاد من العرفاء والمتصوفة وأهل السلوك والرياضات أقرب الىٰ هذا الخطر من سائر الناس .

المرتبة الثالثة

هي أنه يرىٰ نفسه مطالباً بالحق من الله بإيمانه أو بملكاته أو بأعماله ، ويراها مستحقة للثواب ، ويفرض علىٰ الله سبحانه أن يعزه في هذه الدنيا ويوصله إلىٰ المقامات في الآخرة ، ويعتقد بأنه مؤمن خالص ، وإذا ذكر المؤمنون بالغيب يدخل رأسه بين الرؤوس ويتخيل في قلبه أنه مستحق للثواب والأجر ، حتىٰ لوأن الله سبحانه عامله بالعدل ، بل يزيد بعض في القباحة والوقاحة فيصّرح بهذا الكلام الباطل ، وإذا أصابه بلاء وناله مكروه فيعترض في

قلبـه علىٰ الله ، ويتعجّب من أفعـال الله العادل وأنـه كيف يبتلي المؤمن الطاهر ويرزق المنافق الفاسق ، وهو غضبان في باطنه علىٰ الحق تعالىٰ بتقديراته ، ويظهر الرضىٰ ظاهراً فيقدّم غضبه لولي نعمته ويُري الـرضىٰ بالقضـاء للمخلوق ، وإذا سمع أن الله سبحانه يبتلي المؤمنين في الدنيا فيتسلّىٰ بذلك في قلبه ، ولا يعلم أن المنافق المبتـلىٰ أيضاً في هـذه الدنيـا كثير وليس كل مبتلىٰ مؤمناً .

المرتبة الرابعة

أن يرىٰ نفسه ممتازاً عن سائـر الناس ، وأفضـل بأصـل الإيمـان من غير المؤمنـين ، وبكمال الإيمـان من المؤمنـين ، وبالأوصاف الحسنة من غير المتصفـين ، وبالعمـل الواجب وترك الحرام من مقابلاتها ، ويرىٰ نفسه أكمل من عـامة النـاس ، وبـإتيـانـه المستحبـات والمـواظبـة علىٰ الجمعـة والجماعات والمناسك الأخرىٰ وترك المكـروهات ، ويعتقـد لنفسه امتيازاً ويعتمد علىٰ نفسه وإيمانـه وأعمالـه ، ويحسب سائر المخلوقات كلا شيء وناقصين ، وينظر إلىٰ الناس بعين الاستخفاف ، ويعيّر ويلوم بقلبه أو بلسانه عباد الله ، ويبعّد كل شخص من باب رحمة الله بنحو من الأنحاء ويخص رحمة الله لنفسه ولفِئة تماثله ، صاحب هذا المقام يصل إلىٰ درجة

يناقش في الأعمال الصالحة للناس مهما بلغت ، ويخدش في أعمالهم في قلبه بنحو ، ويزكيّ أعمال نفسه من تلك الخدشة، ويطهّرها من تلك المناقشة.

الأعمال الحسنة للناس لا يراها شيئاً، وإذا صدرت نفس تلك الأعمال منه يستعظمها، ويدرك العيوب الدقيقة من الناس إدراكاً جيداً ولا يدرك عيب نفسه ويغفل عنه.

هذه علامات العجب وإن كان الإنسان غافلاً عنها ، وللعجب درجات أخرىٰ لم أذكر بعضها وأنا غافل عن بعضها لا محالة . انتهىٰ كلامه دام ظله .

فصل:

إن ما قاله الإمام دام ظله : إن العجب في العقائد والملكات والأعمال لا يختص بمحاسنها بل يوجد في العقائد الباطلة والملكات الخبيثة والأعمال السيئة أيضاً ، ربما يبعد في نظر البعض، وأنه كيف يمكن أن الإنسان يعجب بكفره ونفاقه وملكاته السيئة وعصيانه لله سبحانه ؟ ولكن فليعلم أن الله سبحانه خلق النفس الإنسانية علىٰ كيفية فيها حالة الاعتياد ، وإذا صدر منها عمل غير مرة سواء كان من الأعمال الجوارحية أو القلبية فهي تستأنس به وتعتاده ، وهذه الحالة في النفس من مذاهب الله العظمىٰ والعوامل

المهمة للارتقاء والسير إلىٰ الكمال ، لأن الأعمال الحسنة وهكذا تحصيل الملكات والعقائد الفاضلة ربما تبدو مشكلة للأفراد في أول الأمر ، وتستلزم تحمل المشاق والرياضات ، ولكن إذا تابعتها مدة تعتاد عليها وترتفع المشقة والصعوبة عنها ، (الخير عادة كما أن الشر عادة) ، ومن جهة وجود هذه الحالة في النفس وجّه بعض الأعاظم من أهل الكشف آيات العذاب والخلود في النار ، الذي قرره الله سبحانه للكفار والمشركين ، مستمداً من بعض المبادىء العرفانية والفلسفية ليس هنا محل ذكرها . وأن أهل العذاب بعد وقوفهم فيه مدة تحصل لهم حالة الأنس مع المحيط والعادة به ، فلا يحسّون الملل ، ولعله يستفاد من الآية الشريفة : ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ﴾ تأييد لأصل المطلب وردّه بالنسبة الى أهل النار خصوصاً ، مع الانتباه لجملة : ﴿لِيَذُوقُوا العَذَابَ﴾ . وعلىٰ أي حال نحن ليس لنا علم بحقائق أوضاع عالم الآخرة وأهواله ، ولا يجوز لنا قياس حالات ذلك العالم بعالمنا هذا ، ولكن من المسلّم أن في النفس حالة الاعتياد في هذا العالم موجودة ، وأنها تستأنس بكل عمل يصدر منها بالتكرار ، والقلب يتعلق به ويحبّه ، وإذا أحب الإنسان شيئاً فيكون الحب حجاباً بينه وبين عيوب ذلك الشيء كما قيل .

وعين الرضىٰ عن كل عيب كليلة
ولكن عين السخط تبدي المساويا

وبما ذكرنا يرتبط ما نقلناه عن الإمام دام ظله ، من أن الكفار والمنافقين والمشركين والملحدين وأصحاب الأخلاق الذميمة والملكات الدنيَّة وأهل المعاصي والذنوب ، ربما ينجرّ أمرهم إلىٰ أن يعجبوا بكفرهم وزندقتهم وسيئات أخلاقهم وموبقات أعمالهم ويبتهجوا بها ، فيرون أنفسهم ذوات أرواح حرَّة وخارجة عن التقليد وغير معتقدة بالوهميات ، ويعتقدون أن لهم الشهامة والشجاعة ، وأن الإيمان بالله من الوهميات ، والتعبد بالشرائع من ضيق النظر ، والأخلاق الحسنة والملكات الفاضلة من ضعف النفس ، ويحسبون الالتزام بالمناسك والعبادات من ضعف الإدراك ونقصان المشاعر ، ويرون أنفسهم من جهة حملها أرواحاً حرة وغير معتقدة بالأوهام وغير معتنية بالشرائع مستحقة للمدح والثناء ، هذا لما تجذرت فيهم الخصال الدنيئة واستأنسوا بها وزينت لهم فيحسبونها كمالاً . كما أشير إلىٰ ذلك في الحديث الشريف في الكافي عن علي بن سويد عن أبي الحسن عليه السلام أنه قال : العجب درجات منها أن يزيّن للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيعجبه ، ويحسب أنه يحسن صنعاً ، وقد

قال تعالىٰ : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ وكما قال تعالى أيضاً ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعمالاً . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا وَهُم يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحسِنُونَ صُنْعاً . أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ، فَلا يُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ وَزْناً ﴾ .

يقول الإمام دام ظله في حق المعجبين بعقائدهم الباطلة وملكاتهم الرذيلة وأعمالهم القبيحة :

هذه الفئة من الناس الذين يحسبون أنفسهم عالمين وهم جُهّال وأشدهم مسكنة وشقاوة، فإن أطباء النفوس عاجزون عن علاجهم. والدعوة والنصيحة لا تؤثر فيهم، بل ربما ينعكس أثرها فيهم. هؤلاء لا يستمعون إلىٰ البراهين، ويغلقون أسماعهم وأبصارهم عن هداية الأنبياء وبرهان الحكماء وموعظة العلماء، فلا بد من الاستعاذة بالله سبحانه من شر النفس ومكائدها، وأنها تجر الإنسان من المعصية إلى الكفر، ومن الكفر إلىٰ العجب بالكفر.

النفس والشيطان بسبب تحقير بعض المعاصي في نظر الإنسان يبتليانه بتلك المعصية ، وبعدما تجذرت المعصية في القلب والاستخفاف بها يبتلىٰ بمعصية أعظم منها بدرجة، وبعد تكرارها تسقط تلك أيضاً من نظره ويستحقرها

ويرتكب أعظم منها، وهكذا يتقدم في المعصية خطوة بعد خطوة ، وتخف المعاصي الكبيرة في نظره بالتدريج الىٰ أن تسقط المعاصي كلها لديه ، وتذل الشريعة والسنة الإلهية والنبوية عند نفسه ، فينجر أمره إلى الكفر والزندقة والإعجاب بهما . انتهى .

أقول :

هذه الكلمة القيمة والحكمة العملية التي نقلناها عن معلم الأخلاق الكبير دام ظله؛ هي من لطائف الحكم العملية ودقائق دروس التهذيب الأخلاقية، فإن عظمة المعصية والذنب قد تسقط في نظر المرتكب لها نتيجة للتكرار، وإذا صار العصيان ـ نعوذ بالله ـ أمراً عادياً ليس له قبح فحينئذ لا يتصور له حد يتوقف عنده.

نقل لي بعض من أثق به من إخواني المؤمنين أنه كان حاضراً عند أحد من آخذي الربا والمتّجرين به . وكانت يده ترتعش حينما وقّع أول وثيقة للربا ، مع أنه وجد آنذاك لعمله حيلة شرعية ، ومع ذلك كانت نفسه مضطربة بحيث ترتعد يده ولا يملكها ، ولكن هذا الشخص نتيجة تكراره

عمله المحرم صار أول شخصية من آكلي الربا في سوق كرمنشاه (باختران اليوم) ، والمصيبة العظمىٰ أن هذه الحالة من التجرؤ بالمعصية توجد في القلب ظلمة تطفئ نور الإيمان فيه بالتدريج ، فيجد في نفسه شكاً وتردداً في العقائد الحقة ، فإن لم يتب توبة صحيحة ولم يعالج هذا المرض المهلك، ربما ينجر أمره في أنفاسه الأخيرة من الحياة وفي السكرات التي تعرضه عند الموت، إلى أن ينطفئ نور الإيمان في قلبه بالكلية، وينتقل من هذا العالم بحالة الكفر بالله تعالىٰ ، وإذا صار أمره هكذا فينقطع أمل النجاة له بالكلّيّة ، وتغلق عنه أبواب السعادة من كل جانب ، وقد أشير إلىٰ ذلك في الآيات والروايات ، قال تعالىٰ : ﴿ **ثُمَّ كانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُساؤُوا السُّوأى أَنْ كَذَّبوا بآياتِ الله وَكَانُوا بِها يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ . وفي الروايات أيضاً قد عبر عن أثر الذنب في القلب بالنقطة السوداء التي توجد في القلب وتكثر بتكرار الذنب إلى أن تحيط بتمامه،فإذا بلغ القلب إلىٰ هذه الدرجة فحينئذ لا تؤثر فيه الموعظة،وهذا هو المراد من رين القلب في الآية الشريفة ﴿ **كَلاّ بَلْ رَانَ عَلىٰ قُلوبِهم مَاكَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ . كما ورد في الحديث عن أبي جعفر عليه السلام قال : ما من عبد إلاّ وفي قلبه نكتة بيضاء ، فإن أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء ، فإن تاب ذهب ذلك السواد ،

وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطّي البياض، لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً . وهو قول الله عز وجلّ : ﴿ **كلّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ .

* * *

تبعات العجب

للعجب تبعات كثيرة وأضرار وافرة وعمدتها عبارة عن :

١ ـ الكبر . ٢ ـ نسيان الذنب واستصغاره . ٣ ـ الحرمان من فوائد الموعظة والإرشاد . ٤ ـ الغفلة عن آفات العباد . ٥ ـ عدم الاعتقاد برحمة الله وفضله .

وكل واحدة من هذه تكفي لهلاك الإنسان وشقاوته ، فكيف باجتماعها .

١ ـ الكبر :

أما كون الكبر من نتائج العجب فلأن هاتين الصفتين لهما جذر واحد ، بمعنى أنّه إذا وجد في النفس حالة العجب ورؤية الكبرياء ، ورأى الإنسان نفسه كبيرة وعميت عين قلبه عن مشاهدة العيوب والنقائص الموجودة فيه ، ففي تلك الحالة إذا أراد أن يُري حالة استعظامه للنفس لأحد ويظهر حالة الاستعظام ، فعندئذ سيبتلى بمرض التكبر الخطير . وبعبارة أخرىٰ : حالة العجب واستعظام النفس علىٰ الآخرين مادامت في الباطن وليس لها في الخارج ظهور فهي « كبر » ، وإذا وصلت إلى الخارج بواسطة الجوارح تسمىٰ

« تكبـراً » . وكلتا الحـالتين الكبـر والتكبـر ـ تحتـاجـان إلى شخص آخر في مقابل الإنسان لكي يـرىٰ نفسه أعـظم منه باطناً وقلبـاً ، فهذا الشخص متصف بصفـة الكبر ، أو أن يظهر العظمة إلى الغـير ويُريـه كبر نفســه ، فهذا الشخص متصف بالتكبر ، وعـلىٰ أي حال الكبـر والتكبر يستـدعيان الطرف المقابل ، وليس العِجب هكذا ، وهذا هو الفرق بين العجب والكبر ، فإن المعجب يرى نفسه وأعماله كبيرة من دون أن يكون نظره إلىٰ الغـير ، بمعنىٰ أنه لـو فرضنا أنه لا يوجد شخص غير المعجب ، وأن الله سبحانه لم يخلق غيره أحداً وهو يعيش وحده ، يتصور في حقه العجب ، فالمعجب علىٰ شفير من جهنّم الكبر ، فحينما وجد طرفاً يمكن أن يظهر عجبه له فيبتلى بالكبر والتكبر ، ويكون مثواه جهنم بصريح القرآن حيث قال : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْـوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ وهذا أحد الآفات الخطيرة التي هي للمعجبين بـالمرصـاد ، فعلىٰ هذا فجميع الآفات والبليات المترتبة علىٰ الصفة الموبقة «الكبر» يمكن ترتبها للعجب أيضاً، أعاذنا الله منها.

٢ ـ نسيان الذنب واستصغاره:

العجب يوجب أن ينسىٰ الإنسان كثيراً من الذنوب التي ارتكبها، وبزعم أنه لا يحتاج إلى إصلاح نفسه لا يقـوم إلى

جبران ما فات منه ، ونتيجة لهذه الغفلة ينسىٰ كثيراً من الذنوب ، وما لا ينساه أيضاً لا يهمّه ، فربّما تكون هذه الحالة موجبة للتجرّي إلى الذنوب الجديدة ، ولعله إلى هذا المعنىٰ أشير في الرواية التي ذكرت في الوسائل عن الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث قال موسىٰ بن عمران لإبليس : أخبرني بالذنب الذي إذا أذنب ابن آدم استحوذتَ عليه قال : إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه . ومن المعلوم إذا استحوذ الشيطان علىٰ أحد فنتيجته التجري إلى الذنب أكثر ، ومضافاً إلى ذلك استصغار الذنب من حيث أنه إهانة لمقام العظمة الإلهية هو في نفسه من الكبائر ، وربما يكون ما نعاً من شمول الرحمة الإلهية له ، كما أشير إلى ذلك في بعض الروايات ، ففي الكافي الشريف عن زيد الشحّام عن الصادق عليه السلام قال أبو عبد الله : اتقوا المحقرات من الذنوب فإنها لا تغفر ، قلت وما المحقرات قال : الرجل يذنب الذنب فيقول طوبىٰ لي لو لم يكن غير ذلك . وروىٰ أبو هاشم الجعفري عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنه قال : سمعت أبا محمد عليه السلام يقول : من الذنوب التي لا تغفر قول الرجل ليتني لم أؤاخذ إلا بهذا .

إن الأستاذ الإمام الخميني ـ روحي فداه ـ بعد بيان أن

العجب يفني الإيمان والأعمال ويفسدها ، كما في رواية علي بن سويد حيث سأل الإمام عن العجب الذي يفسد العمل، وبيّن الإمام بعض درجاته والروايات الأخرىٰ في هذا المقام قال:

إن العجب شجرة خبيثة ، ثمرها كثير من الكبائر والموبقات ، فإذا استقر في القلب جذره ، فينجّر أمر الإنسان إلى الكفر والشرك وأكثر منهما ، ومن أحد مفاسده استصغار الذنوب ، بل الإنسان المعجب لا يكون في صدد إصلاح نفسه ، ويزعم أنها طاهرة مطهرة، ولا يهتم في وقت من الأوقات أن يطّهر نفسه من قذر المعاصي ، والحجاب الغليظ من العجب يمنعه أن يرىٰ مساوئ نفسه ، وهذه مصيبة تمنع الإنسان من جميع الكمالات ، وتبتليه بأنواع النواقص ، وتسبب الهلاك الأبدي للإنسان ، وتعجز أطباء النفوس عن العلاج . انتهى .

٣ ـ الحرمان من فوائد الموعظة والإرشاد:

من مصائب العجب التي يتبلى الإنسان بها أن الإنسان نتيجة هذا المرض الروحي ونتيجة اعتقاده بتزكية نفسه والمقام الذي له عند الله ينظر إلى الغير بنظر الاستجهال ، ولا يرىٰ لنظراتهم قيمة ، ونتيجة هذه الحالة أنه لا يقبل نصيحة من أي ناصح وموعظة من أي واعظ،

ومن حرم عن فيض الموعظة فللنفس والشيطان في إغـوائه مجال واسع . فما في الروايـات وكلمات الأعـاظم والشعراء والحكماء من التأكيـد علىٰ مجـالسة أهـل الصلاح والارتبـاط بالعالم ، حتىٰ أن النـظر إلىٰ وجه العـالم عبادة ، والنـظر إلى باب بيته عبادة علىٰ مـا في الروايـات ، من جهة أن لا تجـد النفس والشيطان مجالاً لإغـوائه، لأنه نتيجة مجالسته مع العلماء والحكماء يكون بصيراً بعيوب نفسه، ويراها مقصّرة في طريق السلوك إلى الله ، ولكن إذا انقطع عن مجالستهم فتحيط به الآفات ويغفل عن عيـوبه ، فيتـوقف عن السعي في طلب المقصـود ، ويزعم أنـه وصـل المقصـد ولا يحتـاج بعـد إلىٰ السعي ، ومن كـان هذا حـاله فهـلاكـه قـطعي وسقـوطـه حتمي .

يقول الإمام الخميني دامت بركاته : من مفاسد العجب أن ينظر إلى عباد الله بعين الحقارة، ويرىٰ أعمال النـاس كلَا شيء وإن كانت أفضل من أعماله ، وهذا أيضاً من أحد طرق هلاك الإنسان وشوك في طريقه .

٤ ـ الغفلة عن آفات العباد:

من آفـات العجب أن صاحبـه عـوض أن يـرىٰ عيـوب نفسه ونواقص أعمـاله يصـير أعمىٰ عن هذه ، فـلا يفتش أعماله ولا يتفحص عباداته ، حتىٰ أن النفس والشيطان إذا

نفذا فيها من الطرق الأخرىٰ كالرياء وغيره قـام بعلاجه قبل أن تفوت الفرصة منه ، فإنه ربما يكون بواسطة هذا المرض أن لا يصحح الشرائط الظاهرية لمناسكه وعباداته ، وتكون أعماله وعباداته بـاطلة ، حتىٰ بحسب ظاهـر الشرع وعـلىٰ طبق فتاوىٰ علماء الشريعة ، ولكنه حيث أنه معجب بأعماله لا يفتش عنها لكي يطبق أجزاءها وشرائطها الظاهرية عـلىٰ الشـرع المقدس ، فيتـوجه المسكـين إلـى ذلـك في وقت أن عبادة خمسين سنة من عمره بـاطلة، ولم تكن صحيحة ولـو بمقدار أن لا يلزمه القضاء والإعادة ، وأي عيب أعظم من أن يغفل الإنسان عن رؤية معايبـه ، كما يقـول (ص) : «كفى المرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمىٰ عنه من نفسه» وقال علي بن محمد الهادي (ع): «من رضي عن نفسـه كثر الساخطون عليه» .

اللهم بصّـرنا بعيـوب أنفسنا لتكـون هـذه البصيـرة من إحدىٰ علامات حبك لنا كما قال عليه السلام: «إن الله إذا أحب عبداً بصّره بعيوب نفسه» .

٥ ـ عدم الاعتقاد برحمة الله وفضله:

من مفـاسد العجب أنـه يضعف اعتمـاد الإنسـان عـلىٰ فضـل الله تبـارك وتعـالىٰ: إن المعجبـين بـاعتمـادهم عـلىٰ أعمالهم يقعون في ظلمة ونكبة شديدة، بحيث أنـه لو ذكـر

أحياناً شيء من فضل الله ورحمته غير المتناهيـة فهم ينكرون بنحو من الإنكار ، كأنهم يحبون أن يعمل الله سبحانه وتعالىٰ مع خلقه بعدله ، حتىٰ يكون المعجبون من الناجين بزعمهم ولا يكـون تعبهم في الأعمال هـدراً. وبعبـارة أخـرى: إن مرض العجب يحدث فيهم مرض الحسد أيضاً، فعلىٰ فرض المحال لو أنهم نجوا بعدل الله فـلا يرغبـون أن ينجو سـائر الناس بفضله تعـالىٰ ؛ هؤلاء الأشخاص مع أنهم مستغرقون في الذنوب، بل هم تجسم للذنب والعصيان، إذا سمعوا من أحد يقول إن الله سبحانه يغفر لمن يشاء ولا يبالي بأحد ولا يخشاه، فعوضـاً عن أن يسروا ويفـرحوا بهـذا القول، ربما ينكرون هذا بقلوبهم، إن لم ينطقوا به بلسانهم، فيعترضون علىٰ الله بأنه سبحانه لماذا يغفر؟ والحق أنه لا يغفر! لأنه إذا غفـر للآخـرين فما الفـرق بيننا (نحن الـذين أتعبنا أنفسنـا وسعينا في مسلك النسك والعبادات) وبينهم؟ وهم كما قـال أمير المؤمنين (ع): يخاف علىٰ غيره بأدنى من ذنبـه، ويرجـو لنفسه بأكثر من عمله، يستعظم من معصية غيره ما يستقل أكثر منه من نفسه، ويستكثر من طاعته ما يستقل أكثر منه من غيره.

ونتيجـة لهذا المـرض ينكر المعجبـون أكثر الـروايـات في جـانب الـرجـاء الـواردة من أهـل البيت عليهم السـلام ،

وخصوصاً بالنسبة إلى شيعتهم، فإنّهم إما يردونها أو يؤولونها بشيء من التوجيه والتأويل، ولهذا الذي ذكرنا شواهد كثيرة نذكر واحداً منها كنموذج لغيرها:

روىٰ السيد الجليل ابن طاووس رضوان الله عليه في كتاب الإقبال رواية عن الإمام علي بن موسىٰ الرضا (ع) في فضيلة يوم الغدير وفيها: «يأمر الله فيها الكرام الكاتبين أن يرفعوا القلم عن محبّي أهل البيت وشيعتهم ثلاثة أيام من يوم الغدير، ولا يكتبون لهم شيئاً من خطاياهم كرامة لمحمد وعلي والأئمة صلوات الله عليهم أجمعين».

هذه الرواية من جملة المئات من الروايات التي صدورها في الجملة من أهل البيت قطعي ولها تواتر معنوي، ولكنها ثقيلة في مذاق المتقدسين العبّاد والنسّاك المعجبين بأعمالهم، فيستشكلون فيها في غطاء الدفاع عن الدين، وأن الروايات من هذا القبيل تكون موجبة للتجري للبعض فيرتكبون المعاصي في الأيام الثلاثة للغدير، متكئين على هذه الرواية.

هؤلاء في كلامهم هذا ليس لهم همّ الدين؛ وإنما جذر هذه الإشكالات كما أشرنا إليه هو مرض العجب، وحيث أنهم يعتمدون علىٰ أعمالهم ولا يرون أنفسهم محتاجة إلى العنايات

الإلهية فيظهرون هذه التأسّفات للدين ، ولكن رجلاً إلهياً وربانياً كابن طاووس ، الذي له اتصال معنوي بالملكوت الأعلى ، ويعترف بهذا جميع العلماء والأعاظم من المسلمين ، وهكذا المحدث الجليل المجلسي وغيرهما من الأعاظم في الدين ، مع أن التعصب المذهبي لهم أشدّ ، وحمايتهم عن الدين أكثر من هؤلاء المتقدسين يقيناً ، قد كتبوا هذه الرواية ونظائرها في كتبهم ، ولم يخافوا من تجرّي المطّلعين القارئين عليها للمعصية ، ولكن هؤلاء (المرضعات اللاتي هن أرحم من الأمهات) أو الفروع الزائدة على الأصل ، يدافعون عن حرائم الدين ويدّعون أن كتابة هذه الرواية وأمثالها يجرئ الناس على المعصية . لا بد أن يقال لهؤلاء المدّعين المغرورين إن حجاب رؤية النفس وعبادتها مانع عن الإيمان بهذه الحقائق ، وإلا فلا مجال للوحشة من أمثال هذه الرواية ولا محل للإشكال ، فأي فرق بين أن يغفر الذنب المكتوب أو لا يكتب أصلاً ؟ أليست الآيات الصريحة والأخبار المتواترة في أن الله تعالىٰ يغفر الذنوب جميعاً حتى الشرك مع التوبة ، وهذا وعد من الله والله لا يخلف الميعاد، وغير الشرك أيضاً يغفره من دونه توبة إن شاء ، وان كان قد أذنب سبعين سنة فالذي يغفر الذنب لسبعين سنة ويمحوه بإشارة منه تعالىٰ ، وليس محو الذنوب فحسب، بل بمقتضىٰ تجلّي اسم «يا مبدّل

السيئات حسنات» يكتب الحسنة مكان السيئة، أؤلئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، فلو كانت هذه الآيات الصريحة والروايات الصحيحة موجبة لتجري الناس علىٰ المعصية فلتكن هذه الرواية أيضاً موجبة كذلك، وكل ما تجيبون به بالنسبة إلى هذه الآيات والروايات نجيب به بالنسبة إلى هذه الرواية، وما ذكرناه جواب نقضيّ علىٰ الاصطلاح العلمي.

وأما الجواب الحَلّي والتحليل في المسألة: إن من كان محباً لعلي عليه السلام بالحب الحقيقي فهو في أيام الغدير مستغرق في بحر الفرح والسرور، فكما أن المستغرق في البحر والمحاط بأمواج البحر المتلاطمة لا يقبل أيّة نجاسة من الخارج ولا تؤثر فيه ولا تقذره، بمعنى أن غلبة الماء وإحاطته لا تدع مجالاً لتأثير النجاسة فيه؛ فأيام الغدير لا تدع مجالاً لتأثير المعصية الذي هو بمعنىٰ الكتابة والإثبات، ولا تكون موجبة للتجري أيضاً، لأن المحب لعلي عليه السلام ينزجر عن المعصية بالفطرة، ولو صدر منه ذنب فبحكم غلبة الطبيعة والعوارض الخارجية، وهو بعد ارتكاب الذنب وحتىٰ حين ارتكابه يكون خجلاً من خطيئته ونادماً على معصيته، وهذا من أحد العوامل المهمة لعدم تأثير الذنب وموجب لغفران الله، وليس في تلك الأيام الثلاثة فحسب بل في جميع الأيام وطول العمر

وليست حقيقة التوبة إلا هذا؛ فإن التوبة هي الندم وهذا ممّا قضى به ربّنا تعالى جدّه، فمن لم يرض بقضاء الله وأحكامه فليفعل ما يشاء ويصنع ما يقدر.

بناء علىٰ هذا فليس في الرواية مجال لأي توجيه، وتكلف فيه الذي ارتكبه بعض من أن هذه الرواية وما يشبهها سالبة بانتفاء الموضوع، بمعنىٰ أن محب عليه السلام في تلك الأيام لا يرتكب ذنباً، أو مثل ما ارتكبه بعض على ما نقله بعض المتتبعين من الفرق بين الذنب والخطيئة، فيقال بأن الخطيئة هي التي لا تكتب وأما الذنب فهو الذي يكتب، وبناء علىٰ هذا التوجيه أشكلوا علىٰ المجلسي بأنه كيف ترجم الخطايا في الرواية بالذنب في كتابة «زاد المعاد»، وخلاصة القول إنهم فرقوا بين الخطيئة والذنب، وقالوا بأن المعصية بمعنىٰ الذنب الذي يؤتىٰ به بالتعمد والقصد، والخطيئة هي الذنب الذي يصدر بغير عمد ولا إرادة، وما ذكر في الرواية أنه لا يكتب في الأيام الثلاثة من الغدير هي الخطيئة، بمعنىٰ الذنب الذي يصدر من غير عمد وإرادة، لا المعصية التي تصدر عن عمد وإرادة، فإنها يطلق عليها الذنب لا الخطأ. ولكن هذا الفرق عبث بلا موجب، لأن الذنب في كتب اللغة بمعنىٰ مطلق المعصية سواء أكانت عن عمد أو غير عمد، ولكن الخطيئة فقد اختلفت في أنه هل هي مطلق الذنب المخصوص الذي

يصدر عن عمد، كما في المنجد: الخطيئة الذنب وقيل المتعمد منه جمعه خطايا وهكذا في منتهىٰ الأرب فليراجع. ومضافاً إلى ذلك من معناه اللغوي قد استعملت هذه المادة ـ الخطيئة ـ في القرآن في أكثر من عشرين مورداً ولا يمكن إرادة الذنب الذي صدر بغير عمد وإرادة في أكثرها كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا طَعامٌ إلّاَ مِنْ غِسْلِينٍ لَا يَأْكُلُهُ إلّاَ الخَاطِئُونَ﴾ ﴿وَجاءَ فِرعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ والمُؤْتَفِكَاتُ بالخاطِئَةِ﴾. ﴿كَلّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾. ﴿بَلىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحَابُ النّارِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ﴾ ﴿مِمّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً﴾. فكيف يمكن في هذه الموارد التي هدد الله سبحانه بهذه التهديدات الشديدة أن يكون المراد من الخطيئة الذنب الذي صدر من غير عمد وإرادة؟ أو يكون فرعون وقوم نوح وغيرهم من المذنبين قد ارتكبوا الذنب بلا إرادة وعمد؟ ومع الغض عن جميع ذلك. ما معنى العفو عن الخطيئة التي صدرت من غير عمد وإرادة في تلك الأيام الثلاثة مع أن الرواية في مقام الامتنان وهذا العفو لا يختص بها؟ فمن الواضح أن هذه التوجيهات والتوضيحات غير قابلة للقبول، ومن المثل المعروف في الفارسية «إنشاد الشعر والعجز عن القافية» ولإمام الأمة وقائد الثورة الإسلامية

الإمام الخميني دامت بركاته بمناسبة الروايات الواردة في فضل البكاء من خشية الله كلام أنقل ترجمته زيادة في الفائدة:

كلام في المقام للإمام الخميني:

يقول الإمام دام ظله: مما لا بد من الإشارة إليه أن بعض النفوس الضعيفة غير المطمئنة يخدشون بأمثال هذه المثوبات الكثيرة للأمور الجزئية، غفلة عن أنه إذا كان شيء صغيراً في هذه الدنيا في أعيننا فلا يدل علىٰ أن صورته الغيبية والملكوتية صغيرة وحقيرة، فربّما يكون أن موجوداً صغيراً يكون ملكوتة وباطنه في كمال العظمة والمجد، كما أن الهيكل المقدس والصورة الجسمانية للرسول الأكرم الخاتم والنبي المكرم المعظم صلىٰ الله عليه وآله كان من أحد الموجودات الصغيرة في هذا العالم، ولكن روحه المقدسة كانت محيطة بالملك والملكوت، وواسطة لإيجاد السموات والأرضين. فالحكم بحقارة شيء وصغره بحسب الصورة الباطنية والملكوتية، فرع من العلم بعالم الملكوت وبواطن الأشياء، ولا يحق لأمثالنا مثل هذا الحكم، ولا بد لنا أن نفتح أعيننا وآذاننا إلىٰ كلمات علماء عالم الآخرة؛ أعني الأنبياء والأولياء عليهم السلام، هذا مضافاً إلىٰ أن مبنىٰ ذلك العالم علىٰ التفضل وبسط الرحمة غير المتناهية للحق جلّ وعلا، وليس لفضل

الله تعالىٰ حد ولا نهاية، والاستبعاد من فضل الجواد علىٰ الإطلاق وصاحب الرحمة غير المتناهية لينشأ من غاية الجهل، فإن جميع هذه النعم التي تفضل بها علىٰ عباده، والتي تعجز العقول وتحتار من إحصاء كلياتها، كلها كانت من دون أن يسبقها السؤال والاستحقاق، فأي مانع من أن يتفضل بأضعاف مضاعفة من هذه المثوبات علىٰ عباده من دون أية سابقة؟ فهل يستبعد ذلك من عالَم كان بناؤه علىٰ نفوذ الإرادة الإنسانية، وقيل في حقه: ﴿**وَفيها مَاتَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ**﴾. مع أن اشتهاء الإنسان ليس له حد محدود ولا قدر مقدر، إن الله تبارك وتعالىٰ قرر ذلك العالم طوراً والإرادة الإنسانية علىٰ نحو يكون ما أراد الإنسان موجوداً بمحض الإرادة.

فيا عزيزي: ليست الأخبار والأحاديث الشريفة لهذه المثوبات واحداً أو اثنين أو عشرة لكي يكون للإنسان مجال لإنكارها، بل هي فوق حد التواتر، وجميع الكتب المعتبرة للأحاديث مشحونة بهذا النحو من الأحاديث، فهذه مثل أن يسمع الإنسان بأذنه من المعصومين عليهم السلام، وليست علىٰ نحو يكون باب التأويل فيها مفتوحاً، فالإنكار لمثل هذا المطلب الذي هو مطابق للنصوص المتواترة، وليس مصادماً مع البرهان بل موافق له بنحو من البرهان من ضعف الإيمان

وغاية الجهالة، ولا بد للإنسان أن يكون مسلّماً لقول الأنبياء والأولياء عليهم السلام، وليس شيء أفضل لاستكمال الإنسان من التسليم لأولياء الحق، وخصوصاً في الأمور التي لا سبيل للعقل إلىٰ كشفها ولا طريق لفهمها إلا من طريق الوحي والرسالة، فالإنسان إن أراد أن يدخّل عقله الصغير والأوهام والظنون في الأمور الغيبية الأخروية والتعبدية الشرعية، فينتهي أمره إلى إنكار المسلمات والضروريات، وبالتدريج ينجر أمره من القليل إلى الكثير، ومن الأسفل إلى الأعلىٰ؛ فلو فرضنا أنك خدشت في هذه الأخبار وسندها مع أنه ليس فيها مجال للإنكار، فلست خادشاً في الكتاب الكريم الإلهي والقرآن المجيد السماوي، فإن فيه أيضاً أمثال هذه المثوبات مذكورة كقوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ ومثل قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوالَهُمْ في سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مَائَةُ حَبَّةٍ واللّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. بل بظنّي ـ أنا الكاتب ـ أن أحد مباني هذه الاستبعادات والإنكارات هو العجب واستعظام العمل. فمثلاً إذا صام أحد يوماً أو أحيى ليلة بالعبادة، ثم سمع لعمله مثوبات عظيمة فلا يستبعدها مع أن الاستبعاد بعينه موجود لو كان للعمل أجره. لكنه حيث يستعظم عمله ويعجب به فيصدق ذلك الثواب./

يا أيها العزيز:

لو فرضنا أننا في جميع عمرنا وهو خمسون أو ستون سنة قمنا بجميع الوظائف الشرعية، وانتقلنا من هذه الدنيا بالإيمان الصحيح والعمل والتوبة الصحيحة، فما مقدار جزاء أعمالنا وإيماننا هذا؟ مع أنه بحسب الكتاب والسنة وإجماع جميع الملل فإن مثل هذا الشخص مورد لرحمة الحق تعالىٰ، ويدخل الجنة الموعودة، جنة يكون مخلداً فيها في النعمة والراحة، ومؤبداً في الرحمة والروح والريحان، فهل في هذا مجال للإنكار؟ مع أنه لو كان المبنىٰ هو جزاء العمل، ونفرض باطلاً أن أعمالنا لها جزاء فلا يكون جزاؤه هذا الذي يعجز العقل عن تصوره كمّا وكيفاً. فعُلم من ذلك أن المطلب مبتنٍ علىٰ أساس آخر، ويدور علىٰ محور آخر، فإذن لا يبقىٰ أي استبعاد ولا يفتح للإنكار أي طريق. انتهىٰ كلامه دام ظله.

ومن مفاسد العجب أنه يحمل صاحبه علىٰ الرياء، وذلك لأن التظاهر بالجمال من الغرائز البشرية. والكف عن إراءة الجمال لصاحبه صعب جداً، كما أن الكف عن الطعام والشراب صعب للجائع والعطشان. وللعرفاء الشامخين في هذا المجال لطائف ودقائق لا يناسب المقام ذكرها، وهذا

المعنىٰ لا يفـرق بين الجمـال الحقيقي والجمال المتـوهم والموهوم، فالإنسان المعجب حيث أن أعماله جميلة في نظره، وحيث أن الأعمـال صـادرة منـه يجب إراءتها للغـير، ومن الصعب أن يقوم في مقابل هذا الميل النفساني، فإنه إن كانت عنـده هذه الإرادة فلم يبتـل بالعجب من أول الأمر، وهذا بخلاف من لم يكن معجباً بأعماله، فإنه لا يرىٰ أعماله شيئاً بل يراها كلا شيء، ويرىٰ أخلاقه فاسدة وإيمانـه غير قـابل للإراءة إلىٰ الغير، فلا يعجب بذاته وصفاتـه وأعمالـه، بل يرىٰ نفسه ولوازم نفسه كلّها غير جميلة، ومثل هذا الشخص لا يكون في مقام إراءة النفس وإظهار أعمالها للغير، وهو كما قال الإمام الخميني دام ظله: «إن المتاع الفاسـد والقبيح لا يعرض في سوق المكارة» ولكن إذا رأىٰ نفسه وأعماله قـابلة للعـرض فيكـون في مقـام إراءة أعمـالـه الجميلة بجمـالهـا المتوهم. فبناء علىٰ هذا فجميع المفاسـد التي ذكرت في هـذه الأوراق لا بد وأن تعد من مفاسد العجب أيضاً. وفي مجال مفاسد العجب كلام للأستاذ الأعظم في الأخلاق والعرفان الإمام الخميني دامت بركاته وإليك ترجمة نصة:

موعظة بليغة للإمام الخميني:

وليعلم الشخص المعجب أنّ هـذه الرذيلة بـذر الرذائـل الأخرىٰ، ومنشأ لأمور كل واحد منها سبب مستقل للهلاك

الأبدي والخلود في العذاب، فإذا عرف هذه المفاسد عرفاناً صحيحاً، وراجعها بالدقة وراجع الأخبار والآثار الواردة من الرسول الأكرم وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، فيرىٰ لنفسه البتة أن يكون في صدد إصلاحها ويطهرها من هذه الرذيلة، ويقطع جذورها عن باطن النفس، لئلا ينتقل ـ ولا سمح الله ـ بهذه الصفة الرذيلة عن هذا العالم، فيرىٰ حينما أغلقت العين الدنيوية وطلع سلطان البرزخ والقيامة أن حال أهل المعاصي الكبيرة أحسن منه، وقد جعلهم الله تعالىٰ مستغرقين في بحار رحمته، للندامة التي كانت فيهم، أو الاعتماد الذي كان لهم بفضل الحق تعالىٰ. وهذا المسكين حيث أنه رأىٰ نفسه مستقلة، ورأىٰ في باطن ذاته أنه مستغن عن فضل الله تعالىٰ، فالله سبحانه ناقش في حسابه وحاسبه بميزان عدله كما كان هذا طلبه، فيعرفه أنه لم يأت بعبادة للحق تعالىٰ أصلاً، وجميع عباداته كانت موجبة للبعد عن جناب الحق، وجميع أعماله وكل إيمانه لم تكن باطلة ولا شيئاً فحسب، بل كانت موجبة لهلاكه وبذراً للعذاب الأليم وسبباً للخلود في الجحيم، ولا سمح الله أن يعامل الله سبحانه أحداً بعدله، فإنه لو فُتح هذا الورق لم يكن لأحد من الأولين والآخرين طريق إلى النجاة. إن أئمة الهدىٰ عليهم السلام والأنبياء العظام كانوا يتمنون في مناجاتهم مع الله

فضله سبحانه، وكانوا يهالون من العدل والمناقشة في الحساب.

إن مناجاة الخواص في جناب الحق والأئمة المعصومين صلوات الله عليهم مشحونة بالاعتراف بالتقصير والعجز عن القيام بالعبودية. ففي محل يعلن أفضل الموجودات والممكن الأقرب إعلان: «ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك» فحال سائر الناس معلوم. نعم. هم كانوا عارفين لعظمة الحق تعالىٰ وعالمين لنسبة الممكن إلى الواجب، وأنه لو قضوا عمر الدنيا بالعبادة والطاعة والتحميد والتسبيح لم يؤدوا شكر نعمة الله، فكيف بأن يؤدوا حق ثناء الذات والصفات؟ إنّهم عالمون بأن موجوداً ليس له شيء من نفسه، وأن الحياة والقدرة والعلم والقوة وسائر الكمالات كلها ظل كماله تعالى، والممكن فقير بل هو فقر محض ومستظّل لا مستقلّ، أي كمال للممكن من نفسه حتىٰ يعرض كماله للبيع؟ أي قدرة له حتىٰ يساوم على عمله؟. هم العرفاء بالله والعرفاء لجمال الحق وجلاله، هم شاهدوا بالشهود والعيان نقصهم وعجزهم وكمال الواجب، ونحن المساكين الذين أحاط بنا حجاب الجهل والغفلة والعجب، وإن حجاب المعاصي القلبية والقالبية قد حجب أعيننا وآذاننا وعقولنا

وحواسنا وبقية مداركنـا، بحيث نعرض وجـودنا في مقـابل السلطنـة القاهـرة للحق تعالىٰ ونقـول بالاستقـلال والشيئية لأنفسنا.

فيا أيها الممكن المسكين الذي ليس عنده خبر من نفسـه ومن نسبتـه مع الخـالق!! أيهـا الممكن الشقيّ الغـافـل عن وظيفته بالنسبة إلى مالك الملوك!! هذا الجهـل وعدم العلم هو الذي كان سبباً لتلك الشقاواتِ، وابتلانا بهذه الظلمات والكدورات، إن خراب الأمر من مبدئه، وكدورة المـاء من عينه، أن أعيننا لرؤية المعـارف عمياء وقلوبنـا ميتة، وهـذه سبب لجميع المصيبات، ولسنا في صدد إصلاحها أيضاً.

اللهم أنت هبْ لنا توفيقاً وعرّفنا وظائفنـا وأعطنـا نصيباً من أنوار المعارف التي ملأت بها قلوب العارفين والأوليـاء، وأرنا إحاطة قدرتك وسلطنتك، وأرنا نواقصنا وأفهمنا معنىٰ الحمد لله رب العالمين. نحن المساكين الغافلين الذين ننسب المحامد كلها إلىٰ الخلق، وعرّف قلوبنا أنه ليست محمدة من مخلوق أصلاً، وأرنا حقيقة: ﴿**مَاأَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ**﴾ وأورد في قلوبنا القاسية المكـدّرة كلمة التـوحيد المبـاركة فـإنـا نحن أهـل الحجـاب والـظلمة، وأهـل الشرك والنفـاق، نحن المحبّـون لأنفسنـا

والمعجبون بها، وأخرج حب النفس وحب الدنيا من قلوبنا، واجعلنا محبين لله والعابدين له، إنك علىٰ كل شيء قدير.

انتهت الموعظة البالغة للإمام الخميني دامت بركاته.

* * *

معالجة مرض العجب

اعلم أيها العزيز أن الأطباء الجسمانيين في معالجة الأمراض الجسمية يجتهدون ابتداء في كشف علة المرض، وباصطلاح طبي في كشف جرثومته، وبعد التوفيق في هذه المرحلة يعالجون المرض لإعدام جرثومته باستخدام جرثومة ضدها، فيأخذ المريض صحته وسلامته.

هكذا علماء الأخلاق والأطباء الروحيون استغلوا هذه الطريقة في معالجة الأمراض الروحية والنفسيّة، نعم بينهما فرق وهو أنه في الأمراض الروحية والنفسية ربما تكون المعرفة بعلّة المرض هي بنفسها معالجة له من دون الاحتياج إلىٰ عملية أخرىٰ، وبعبارة أخرىٰ: في الأمراض الروحية التي تكون علتها الجهل وليس لعامل سوى الجهل دخل في تكوّن المرض، ففي مثل ذلك إذا عرفت العلل والعوامل التي يكون مبناها الجهل، فينهدم مبناها ويتبدل بالعلم، وينتفي المرض الذي كان معلولاً للجهل،، ولا يحتاج إلىٰ برنامج

عملي للعلاج. مثلاً: إذا كان أحد مبتلى بالخوف وهو يخاف من الخلوة والمكان المظلم، هذا الشخص إذا التفت وعلم بأن منشأ هذا الخوف هو خياله ووهمه وليس في الخارج من ذهنه شيء أصلاً، ولا يتحقق من الظلمة والخلوة ظاهرة في الخارج تضر بهذا الشخص وتصيبه بسوء، فإذا أدركت نفسه هذا المعنىٰ فنفس العلم بهذا يكفي في عدم الخوف من الخلوة والظلمة، من دون الاحتياج إلى معالجة عملية. فالمرض المورد لبحثنا، أعني العجب، أيضاً من هذا القبيل من الأمراض الروحية، وهو إن لم يكن متكئاً كله علىٰ الجهل فلا محالة أن قسماً مهمّاً منه مبني علىٰ الجهل، فيؤمّل أن يزول هذا المرض الخطير بالتوجه إلىٰ ما ذكرنا من التذكرات العلمية، وإذا بقي منه شيء في النفس فيستمدّ صاحبه من الألطاف الإلهية، ويوفق بقلع مادة هذا المرض تماماً إن شاء الله. وفي هذا المجال نأتي بكلام بعض علماء الآخرة مختصراً لتتم الاستفادة به.

كما ذكرنا سابقاً منشأ العجب في الإنسان هو مشاهدة صفة الكمال في النفس حتىٰ وإن لم يكن كمالاً واقعياً بل كمالاً خيالياً، ومن المعلوم أن للكمال أقساماً مختلفة، وينقسم من جهة إلى قسمين:

الأول: الكمالات التي تكون باختيار المكلف وتكون من الأمور الاختيارية.

الثـاني: الكمالات التي ليست داخله تحت اختيـاره بـل أوتيها بغير اختيار منه كالجمال والنسب وأمثالها، فحيث أن العجب يدخل في القلب علىٰ الأكثر من طـريق الكمالات الاختيارية فنعرض لها فنقول:

إذا فـرضنا شخصـاً صاحب تقـوىٰ وورع وله الأعمـال العبادية، فإن كان يعجب من حيث أنه محل هذه الأوصاف ومجـرىٰ هذه الأعمـال، ويعتقد بـأن أصـل العمـل من الله سبحانه، وهو الذي جعله محلاً لهذه الصفة وأجرىٰ علىٰ يديه هذا العمل، وهو مع هذا الاعتقاد أيضاً يعجب، فليس هذا سـوىٰ الجهل. لأن المحـل مسخر ولا دخـل لـه في الإيجـاد أصلاً، فكيف يعجب بعمل ليس له دخل فيه بشيء؟

وإن كان عجبه من جهة أن تلك الصفة أو ذاك العمـل منه لا من غيره وحصل عليه باختياره وبقدرته، فليتفكر في القدرة والإرادة وأعضائه الجسمية وبقية الأسباب التي لها دور في تمامية العمل من أين حصلت في يده، فـإن علم وعرف بأن كل هذا من الله سبحانه ومن نعمه التي أعطاه إياها من دون استحقاق ومن غير سابقة ووسيلة، ففي هـذه الصورة

ينبغي أن يعجب بالحق تعالىٰ وبكـرمه وفضله الـذي أفاض عليه هذه الفيوضات من دون استحقاق، وآثره على غيره، لا أن يعجب بنفسـه، ونوضـح هذا المـطلب الدقيق العـرفاني بمثال:

نفرض أن ملكاً حينـما يعرض عليـه جنده وجيشـه ينظر إليهم فيعـطي لواحـد من جملتهم خلعة، لا لصفـة فيه ولا لجمال ولا لخدمة له، فحينئـذ ينبغي أن يعجب المنعم عليه (هذا الجندي) من فضل الملك وعنايته به وإيثاره له من غير استحقاق، ولا ينبغي أن يعجب هو بنفسه.

نعم يجوز أن يعجب ذاك الجندي بنفسه فيقول: إن الملك حكيم وعادل ولا يظلم أحداً ولا يجور ولا يقدّم ولا يؤخّر إلا لسبب، ولا يعطي لأحد رتبة ولا ينزعهـا من أحد من دون سبب، فـإذاً فلا بـد أن الملك تفطن فيَّ صفـة من الصفات المحمودة الباطنية، فمن هذه الجهة آثرني على غيري بالرتبة، ولولا تلك الصفة لما آثرني بها، ولكن عليه أن يتذكر في هذا الوقت أن تلك الصفة أيضاً: أهي من عطايـا الملك وخلعته التي خصّه بها دون غيره؟ أو هي عطية غيره؟ فإن كانت من عطية الملك أيضاً لم يكن له أن يعجب بنفسه، فلو فرضنا أنه كان صاحب فرس فأعـطاه الملك غلامـاً أيضاً لا ينبغي أن

يتطرق إليه العجب، لأنه كما أن كونه صاحباً للفرس لم يكن موجباً لعجبه كذلك كونه صاحب غلام أيضاً، كذلك فلا فرق بين أن يعطي الملك الفرس والغلام معاً أو يعطي الفرس أولاً والغلام ثانياً، فإذا كان الكل منه ينبغي أن يعجب في ذلك بفضل الملك وجوده، إلا أن نفرض أنه حصل على الفرس مثلاً بنفسه وأعطاه الملك الغلام خاصة، ولكن هذا الفرض يصح في الأعاظم والملوك الدنيوية، وأما بالنسبة إلى ملك الملوك الذي يكون أصل الوجود وتوابعه ولوازمه من جوده وعطائه، وهو المتفرد بإيجاد الموصوف والصفة، فلا يصح هذا الفرض. لأنه إذا وُفِقَ مثلاً بعبادة ودخله العجب من طريق أنّ الله سبحانه وإن كان هو الذي وفقه لهذه العبادة ولكن هذا التوفيق إنما هو لحبي إياه، وأن حبي له كان سبباً للتوفيق لهذه العبادة، فحينئذ يسأل نفسه: من الذي ألقىٰ هذا الحب في قلبك؟ فتجيبه النفس لا محالة أن الله هو الذي شرّفني بهذا الحب، فليقل لنفسه إن الحب والعبادة حينئذ كليهما نعمة من الله أعطاهما لك من دون استحقاق لهما، فينبغي أن يكون إعجابك بكرمه وعطائه إذ أنعم عليك بالوجود ووهبك الصفات وهيأ لك وسائل الأعمال الخيرية، فإذاً لا معنىٰ لعجب العابد بعبادته، وعجب العالم بعلمه، وعجب الجميل بجماله، وعجب

الغني بغناه، فإن كل هذه من فضل الله تعالىٰ، وصاحبها محل لفيضان فضل الله وجوده، ونفس المحل أيضاً من جوده وفضله.

أيها القارىء الكريم: لعلك لم تصل إلىٰ أصل المطلب، ومع أن هذا المطلب مورد لقبولك ولكن يمكن أن تكون في القلب وسوسة تمنع عن الإيمان به، وما لم يحصل الإيمان بشيء فمجرد العلم به ليس له كثير الأثر، وقد ذكرنا في باب الرياء أن الإيمان غير العلم، فربما أشخاص يكون لهم العلم ولكن حيث أنه لا إيمان لهم بما يعلمون فلا يفيدهم هذا العلم شيئاً. إن إبليس اللعين كان له العلم بالمبدأ والمعاد فلذلك قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ ﴿فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ولكن حيث لم يكن له إيمان بمعلومه خرج عن زمرة المؤمنين ودخل في عداد الكافرين بصريح من القرآن الكريم حيث قال ﴿أَبَىٰ واسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾.

(ينبغي الانتباه باللطف في كلمة كان حيث إن الإباء والاستكبار من سجدته لآدم كانا نتيجة كفره السابق لا أنه بواسطة عدم سجدته صار كافراً).

وعلىٰ أي حال نطرح سؤالاً لإزالة الوسوسة من القلب، ونأمل بعد الجواب علىٰ هذا السؤال أن ييأس الشيطان

اللعين، ويكون القلب مستعداً لإشعاع نور الإيمان، والسؤال هو:

مع أنا نعلم أن التوفيق والنعم من الله، ومع ذلك كيف يمكننا أن نجهل أعمالنا مع أنّا عملناها وننتظر عليها ثواباً، فلولا أنها عملُنا لما انتظرنا الثواب لها، لأنا لا ننتظر الثواب من أعمال غيرنا، فإن كانت الأعمال ليست منا حقيقة فما تلك المثوبات التي وعدنا الله سبحانه بإعطائها إيانا، وإن كانت الأعمال منا فكيف نجهلها ولا نعجب بها؟

لهذا السؤال جوابان: جواب حقيقي وجواب تسامحي، أما الجواب الحقيقي: فحيث إن إدراكه مبني علىٰ مشاهدة أصحاب القلوب ومكاشفة أرباب السلوك، وليس في حد فهم عامة الناس، فنُعرض عن ذكره، ونكتفي بالجواب الثاني: وهو أنه نفرض أن زعمك بالنسبة إلىٰ أعمالك صحيح، وأن العمل قد أتيت به بقدرتك، وإن كان وجودك ولوازم وجودك كلها من الله سبحانه، ولكن في نفس الوقت لو لم تكن موجوداً لم يكن عملك وإرادتك وقدرتك أيضاً موجودة، ولم يؤت بهذا العمل، فعلىٰ هذا إذا كان العمل نتيجة قدرتك، فقدرتك بمنزلة مفتاح العمل، وهذا المفتاح بيد الله تعالىٰ، وفي كل آن من الآنات أراد أن يسلب عنك

قدرتك ويأخذ هذا المفتاح من يدك يفعل ذلك، فلا تستطيع أن تأتي بالعمل أصلاً، فالعبادات هي خزائن السعادات التي مفاتيح هذه الخزائن عبارة عن القدرة والإرادة والعلم، وهي بيد الله سبحانه.

نفرض أن خزائن الدنيا موضوعة في حصن حصين وأودع مفتاحه بيد الحارس، فلو سعيت آلاف السنين أن تدخل إلى الحصن من فوق جداره أو تجد سبيلاً للنفوذ إلىٰ داخله لا يمكن لك ذلك، ولا تستطيع أن تتصرف بدينار من الأموال المودعة فيه، ولكن إذا أعطاك الحارس المفتاح تفتح الباب بسهولة وتدخل الحصن، وتمدّ يدك إلىٰ أي مقدار من النقود والجواهر وتأخذها بسهولة، فحينئذ إذا أعطاك الحارس المفتاح وسلطك علىٰ الأموال والجواهر الموجودة في الحصن وأخذت كل ما شئت منها بسهولة. فأنصف : أيكون إعجابك حينئذ بالحارس الذي أعطاك هذا المفتاح، أو يكون إعجابك بمدّ يدك وأخذ النقود والجواهر من الخزينة؟. لا ريب أنك ترىٰ هذا نعمة من الحارس ومنّة منه عليك، ولا ترىٰ لأخذك النقود أيّ قيمة لنفسك؛ لأن كل الدور في عطاء الحارس وَجودِه حيث أعطاك المفتاح. فحينئذ إذا أوجد الله سبحانه القدرة

فيـك وسلطك علىٰ إرادتك، وحـرّك الـدواعي والبـواعث فيك، وأزال الموانع والصوارف عنك، وسهّل لك الإتيان بـالعمل، أليس من العجب أن تغفـل عن الإعجـاب بمن أعطاك هذه الأمـور وأن لا تعجب من جوده وفضله وكـرمه وتعجب بذلك التحرك القليل الذي فرضنا أنه صدر منك؟

فافتح يا عزيزي عين قلبك، وشاهد المسبب الواقعي، وتحصّل بعين تكون نافذة عن السبب، ولا تغتر بالشيـطان والنفس فإنها عدوان لك، وإذا كانت قدرتهما بحيث يزينان عقائدك الباطلة وصفاتك الذميمة وأعمالـك السيئة، وأنت عـوض أن تنكس رأسك بتلك الأمـور وتخجل، يفـرضان عليك العجب بها، فكيف تـأمن وتغفل من أن يـزيّنا لـك عبـاداتك ويـدفعانـك إلى العجب بها حتىٰ تكـون جميـع عباداتك هبـاء منثوراً، ويجعـلان عملك في سجّين بعـد أن كنت ترجو أن يكون في عليّين؟

أيهـا العزيـز، تفكر في أحـوال المحبين والمقـرّبين لله سبحانه، فترىٰ أنهم كيف كانوا يرون أنفسهم صفر الأيدي من الأعمال الصالحة في جناب الله سبحانه، وقد كتب أمير المؤمنين علىٰ كفن سلمـان بما لـه من العبادات والـزهـد والوصول إلى الدرجة العاشرة من الإيمان:

وفـدت عـلىٰ الـكـريـم بـغـيـر زاد
من الـحسـنـات والـقـلب الـسـليـم

كان أحد الأعاظم إذا هبت ريح عاصفة أو رأىٰ الـرعد والبرق في السماء يقول: «ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بسببي ولو مات عطاء لاستراح الناس».

وسئل بعض منهم بعد رجوعه من عرفات: كيف رأيت الموقف؟ فقال: «كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كـوني فيهم».

فيا أيها العزيز إياك أن تشك في هذه المعارف الإسلامية المؤيـدة بـالآيـات والـروايـات والمستنـدة لشهـود أربـاب القلوب، فإنه من أعـظم الحجب لإدراك الحقيقة، وهـذا المرض، أي العجب، إذا تقارن بهذا الحجاب فيكون لا سمح الله داء عضالاً ومرضاً غير قابل للعلاج.

نعم يا عزيزي، إن لله تعالىٰ تصرفات في قلوب أوليائه، ولها أحوال لم نطلع عليها، ونحن المساكين والغافلين عن جميـع الأمـور لم نـدرك حـالـة الخضـوع التي في قلوب الأولياء في جميع عمرنا ولو لحظة واحدة، وحق لنا أن لم نرها، لأنها نتيجة تجلّي عظمة الحق تعـالىٰ للقلب فيندك لذلك جبل الإنّيّة والأنانية **﴿فَلَمّا تَجَلّى رَبُّهُ لِلْجَبَـلِ جَعَلَهُ دَكّاً﴾** وإذا نـزل سلطان الحقيقة في قلب وأقام فيـه مقامـه

فحينئذ لا يبقىٰ في القلب أثر من رؤية النفس والعجب بها: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ وليس لنا نحن المستغرقين في الشهوات والمبتلين بأهواء النفس أية مناسبة بهذه العوالم.

فيا سبحان الله كم من الفرق بين القلوب الخاشعة والنفوس الخاضعة وبين الأفراد المستغرقين في العجب ورؤية النفس، بحيث أنه لو أهين أحد منهم أو استخف به وأوذي، يستبعد أن الله سبحانه يشمل الفاعل بالغفران، ولا يشك في أنه صار مغضوباً عليه عند الله بسبب هذه الإهانة، مع أن أحداً منهم لو آذى مسلماً لم يستنكر ذلك الاستنكار ويأمل من الله الغفران لذنبه، وذلك لعظم قدر نفسه عنده، وعجبه بنفسه وهو جهل، وجمع بين العجب والكبر والاغترار بالله، وقد ينتهي الجهل والحمق والغباوة لبعضهم إلىٰ حدّ يتحدىٰ ويقول: سترون ما يجري عليه بما فعل بي، وإذا أصيب صدفة بنكبة يحسبها من قبل نفسه، ويزعم أن ذلك من كراماته، وأن الله تعالىٰ ما أراد به إلا شفاء علته وتشفّي خاطره والانتقام له منه، مع أن هذا المسكين يرىٰ طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله، ويعرف جماعة آذوا الأنبياء عليهم السلام، فمنهم من ضربهم ومنهم من قتلهم، ولكن

مع ذلك أمهل الله سبحانه أكثرهم ولم يؤاخذهم بأعمالهم هذه في الدنيا ولم يعذّبهم بها، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبهم مكـروه لا في الـدنيـا ولا في الآخـرة، حتىٰ أن الوحشي قاتل حمزة سيد الشهداء مع أنه قتـل أعز النـاس إلىٰ رسول الله وأوجع قلبه الشريف قد وفق بالتوبة وأسلم.
ولكن هذا المغرور الجاهل يزعم أنه أعز عند الله من رسول الله صلىٰ الله عليه وآله، والإهانة له أعظم من قتـل حمزة سيد الشهداء، حيث أن الله سبحانه انتقم له ممّن أهانه ولم ينتقم من قتلة الأنبياء، فيظن أنه أكرم علىٰ الله من أنبيائه، ولعلّه في مقت الله بإعجابه هذا وكبره، وهو غافل عن هلاك نفسه، وهو وأعماله في سجّين. وربما يكون أكثر المذنبين أقرب إلى الله تعالىٰ منه كما في الرواية الشريفة في الكافي عن أبي عبد الله (ع) قـال: إن الله علم أن الـذنب خير للمؤمن من العجب ولولا ذلك ما ابتلي مؤمن بذنب أبداً».

فائدة جليلة للإمام الخميني في معالجة العجب:

ونختم هذا البحث بما أفـاد به أستـاذنا الأعـظم الإمام الخميني دامت بركاتـه في مقام معـالجة مـرض العجب، والمأمول أن يصل الطالبون إلى النتيجة المطلوبة بـالدقـة فيما أفاده الأستاذ، وفي غير مـا ذكرنـاه من أعاظم علمـاء الأخلاق. والله الموفق والمعين.

يقول الإمام الخميني دام ظله:

اعلم أن رذيلة العجب تـوجـد من حـب النـفس لأنّ الإنسان مفطور بحبّهـا، وأن حبّ النفس رأس كل خـطيئة للإنسان، ومنشـأ جميع الـرذائل الأخـلاقية، وبسبب هـذا الحب فإن الانسان يرىٰ أعمـاله الحقيـرة كبيرة في نـظره، ويـرىٰ نفسه بتلك الأعمـال من المحسنين، ومن خـواص جنـاب الحق تعالىٰ، ويـرىٰ نفسه بتلك الأعمـال الحقيرة مستحقـاً للثناء ومستـوجباً للمـدح، بل ربّمـا تتزين قبـائح أعماله في نظره، وإذا رأىٰ من الغير أعمالاً أحسن وأعظم من أعماله فلا تُهمّه تلك الأعمال، والإنسان يؤوّل الأعمال الحسنـة من الناس بنـوع من تأويـل السوء غـالباً، ويؤوّل أعماله القبيحة والسيئة بالحسن بمرتبة من التأويل، فيسيء الظن بخلق الله ويحسن الظن بنفسـه، وهو بـواسطة هـذا الحب يـرىٰ نفسه دائنـاً للحق تعالىٰ ومستـوجباً لـرحمته، بعمل حقير مختلط بـألف من القذارات والمبعدات، فمن الجدير أن نفكر قليلاً في الأعمال الحسنة والأفعال العبادية التي تصدر منا، ونعتبر قليلاً باعتبار من العقل، وننظر إليها بعين الإنصاف، لنرىٰ أنّا هل نستوجب بها المـدح والثناء ونستحق الثـواب والـرحمـة أو نليق بهـا للّوم والعقـاب

والنقمة؟ فلو أن الحق تعالىٰ أحرقنا بنار قهره وغضبه بهذه الأعمال التي هي حسنة عندنا لكان حقاً وعدلاً. فأنا الآن أحكمك أيها القارئ في هذا السؤال الذي أطرحه وأطلب منك التصديق بعد التفكر والتأمل بعين الإنصاف، والسؤال هو هذا:

إن النبي الأكرم صلوات الله عليه وآله، الذي هو صادق ومصدق، لو أخبرك بأنك لو عبدت الله تعالىٰ وأطعت أوامره طول عمرك، وتركت الشهوات وهوىٰ النفس في جميع حياتك، أو أنك خالفت أوامره طول عمرك، وعملت بهوىٰ نفسك والشهوات فلا يفرق في درجات آخرتك، وكنت من الناجين علىٰ أيّ حال، وتدخل الجنة وتأمن من العذاب، من دون فرق بين أن تصلي أو تزني، ولكن رضا الله تعالىٰ في أن تشتغل بعبادته وثنائه ومدحه، وتترك شهواتك وميولك النفسية في هذا العالم، ولا يعطي الله سبحانه لك أجراً وثواباً في مقابل هذا العمل أصلاً. فهل كنت في هذا الفرض من أهل المعصية أم كنت من أهل العبادة؟ وهل كنت تترك الشهوات وتحرم لنفسك لذّاتها لتحصيل رضاه سبحانه وحباً له أم لا؟ فهل كنت مواظباً للمستحبات والجمعة والجماعات أو أنك انغمرت في الشهوات وكنت

ملازماً لللهو واللعب والتغنيات وغير ذلك؟. فأجبنا بعين الإنصاف ومن دون التظاهر والرياء.

أما أنا فأخبر من نفسي ومن الذين هم أمثالي أنا كنا في تلك الحال من أهل المعصية وتاركين للطاعات وفاعلين الشهوات النفسية؛ فقد حصلت النتيجة من هذا أن جميع أعمالنا كانت لللذات النفسية ولإدارة البطن والفرج. نحن كنا أصحاب البطون وعبدة الشهوات، وإنما تركنا اللذة للذّة أعظم، وإنما كانت وجهة نظرنا وقبلة آمالنا ترتيب بساط الشهوات، وإنّما الصلاة التي هي معراج قرب الله نصليها للقرب إلىٰ نساء الجنة، وليست مرتبطة بالتقرب إلى الحق تعالىٰ، ومرتبطة بإطاعة أمر الله أصلاً، وتبعد عن رضا الله سبحانه آلاف الفراسخ.

أيها المسكين الجاهل بالمعارف الإلهية، الذي لا تعرف شيئاً غير إدارة شهوتك وغضبك، وأنت أيها المقدّس المواظب للذكر والورد والمستحبات والواجبات والتارك للمكروهات والمحرّمات، والمتخلق بالأخلاق الحسنة والمتجنب من سيئات الأخلاق، اجعل أعمالك في ميزان الإنصاف لترىٰ أنّ كل هذه الأعمال للوصول إلى الشهوات النفسية، والجلوس علىٰ السرر من زمرّد، والمضاجعة مع

الحور العين في الجنان، ولبس الحرير والإ ستبرق والسكنىٰ في القصور العالية والوصول بالآمال النفسية. فهل يمكن لهذه الأعمال التي كلّها لعبادة النفس وحبّها أن تنسب إلىٰ الله وإلىٰ عبادة الحق؟ وأي فرق بينك وبين العامل الذي يعمل للأجر؟ وإذا قال العامل إني عملت عملي لصاحب العمل محضاً فتكذبه في قوله، أولست كاذباً حينما تقول إن صلاتي للتقرب إلىٰ الله؟ فهل صلاتك هذه للتقرب إلىٰ الله أو للتقرب إلىٰ نساء الجنة والوصول إلىٰ الشهوات؟. أقول قولي هذا بالصراحة: إن جميع عباداتنا في نظر العرفاء بالله وأولياء الله هي من المعاصي الكبيرة.

فيا أيها المسكين، تعمل في محضر الحق جل جلاله وفي محضر ملائكته المقربين علىٰ خلاف رضا الحق تعالىٰ، والعبادة التي هي معراج القرب للحق تأتي بها للنفس الأمارة والشيطان، وفي نفس الوقت لا تستحي وتكذب في كل عبادة مرات في محضر الربوبية والملائكة المقرّبين، وتفتري افتراءات، وتمنّ بذلك أيضاً وتعجب وتدلل ولا تستحي!! فما فرق عبادتي وعبادتك مع معصية أهل العصيان التي أشدها الرياء، فإن الرياء شرك، وقبحه وعظمته من جهة أن العبادة لم تأت بها لله تعالىٰ، فجميع

عباداتنا شرك وليس فيها شائبة من الخلوص والإخلاص، بل رضا الله تعالىٰ ليس دخيلاً فيها بطريق الاشتراك أيضاً، وإنما هي للشهوات وتعمير إدارة البطن والفرج. فيا أيها العزيز: إن صلاةً يؤتى بها محبة لإحدىٰ النساء سواء كانت من نساء الدنيا أو نساء الآخرة فهذه الصلاة ليست لله، أو صلاة أتي بها للوصول إلىٰ آمال الدنيا أو آمال الآخرة ليست مرتبطة بالله؛ فما هذا الدلال والتغنج؟ تنظر إلى عباد الله بعين التحقير وتحسب نفسك من خواص جناب الحق، فيا أيها المسكين أنت بنفس هذه الصلاة تستحق للعذاب ومستوجب لسلسلة طولها سبعون ذراعاً. فلماذا ترىٰ نفسك دائناً لله وتهيئ لنفسك بهذا التدلل والعجب عذاباً آخر؟ فاللازم عليك أن تأتي بالأعمال المأمور بها وتلتفت بأنها ليست لله، وتعلم بأن الله تعالىٰ يدخلك الجنة بتفضله وترّحمه، فإنه سبحانه خفّف لعباده بعض الشرك لضعفهم، وألقىٰ عليهم حجاب الستر بغفرانه ورحمته، فلا تهتك هذا الستر، ودع حجاب غفران الحق ملقىً علىٰ السيئات التي سميناها بالعبادة، فإنه لا سمح الله لو قلب الورق وجاء ورق العدل لما كانت عفونة عباداتنا بأقل من عفونة المعاصي الموبقة لأهل المعصية.

روىٰ ثقة الإسلام الكليني في الكافي بإسناده إلىٰ

الصادق عليه السلام، قال، أي رسول الله (ص): «قال الله عز وجل لداوود: يا داوود بشّر المذنبين وأنذر الصدّيقين قال: كيف أبشر المذنبين وأنذر الصديقين؟ قال يا داوود بشر المذنبين أني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب، وأنذر الصديقين أن لا يعجبوا بأعمالهم فإنه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك». فبعدما كان الصديقون هالكين في الحساب مع أنهم مطهّرون من الذنب والمعصية فماذا أقول وتقول؟

كل ذلك إذا كانت أعمالنا وأعمالكم خالصة من الرياء الدنيوي الذي هو من الموبقات والمحرمات، وقلّما يتفق لنا عمل خال من الرياء والنفاق. دع ذلك لئلاّ نتكلم فيه.

فالآن إذا كان مجالاً للعجب والتدلل والتغنج فافعل ذلك، وإن كان بالإنصاف محلاً للخجلة وتنكيساً للرأس والاعتراف بالتقصير فاستغفر الله وتب إليه بالجد والواقع، بعد كل عبادة أتيت بها، منها ومن الأكاذيب التي قلتها في محضر الحق تعالىٰ، والنسب التي انتسبت بها بغير حق. أليست تجب التوبة من أن تقول في مقابل الحق تعالىٰ قبل الورود في الصلاة «وجّهت وجهي للذي فطر السموات

والأرض حنيفـاً مسلماً ومـا أنا من المشـركين إن صـلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين»؟ هل وجهة قلبك لفـاطـر السمـوات والأرض؟ هـل أنت مسلم؟ هـل أنت خالص من الشرك؟ هل صلاتك وعبادتك ومحياك ومماتك لله؟ أليس موجباً للخجلة أن تقول في الصلاة: الحمـد لله رب العالمين؟ هل تـرىٰ جميع المحـامد للحق تعـالىٰ أو تراها للعبـاد، بل تثبت المحمـدة لأعداء الله؟ أليس هـذا كذباً أن تقول الحمد لله رب العالمين مع أنك تثبت الربوبية في هذا العالم للغير؟ أليس يوجب التوبة قولك: إياك نعبد وإياك نستعين؟ هل أنت تعبد الله أو تعبد البـطن والفرج؟ هل أنت تريد الله أو تريد الحور العين؟ هـل أنت تستعين بالله فقط أو أنه من الممكن أن تستعين بكل شيء ويكون كل أمر مورداً لنظرك سوىٰ الله؟ هل مقصدك ومقصودك هو الله حينمـا تـذهب إلىٰ زيـارة بيت الله؟ وهـل مـطلبـك ومطلوبك صاحب البيت؟ وهل قلبك مترنم بقول الشاعـر «وما حب الديار شغفن قلبي»؟. هل أنت طـالب لله؟ هل تطلب آثار جلال الحق وجماله؟ هل أنت تقيم العزاء لسيد المـظلومين؟ هـل أنت تلطم صـدرك ورأسـك لأجله أو للوصول إلىٰ مالك وأمانيك، وأن الدافع لإقامتـك مجلس العزاء هو شهوة البطن؟ وما يدفعك إلىٰ صلاة الجماعة هو

شهوة الجماع، وما يوجب اشتغالك بالمناسك والعبادات هوىٰ نفسك؟

أيها الأخ، دقّق في مكائد النفس والشيطان، واعلم أنه لا يدعك أيها المسكين أن تأتي بعمل واحد خالص، وهذه الأعمال غير الخالصة التي قبلها الله سبحانه منك بفضله. لا يدعك أن توصلها إلىٰ المنزل، فيفعل بك ما يجعلها كلّها هباء بواسطة العجب والتدلل فيفوتك هذا الربح أيضاً، فقد بعُدت عن الله ورضاه، وما وصلت إلىٰ الجنة والحور العين، وليس هذا فحسب، بل صرت مخلداً في العذاب ومعذباً في نار قهر الله. أزعمت أنك بهذه الأعمال المهلهلة والمتعفّنة والمتخلخلة، مخلوطة بالرياء والسمعة وبألف مصيبة، تكون كل واحدة منها مانعة عن قبول الأعمال أن لك حقاً علىٰ الله تعالىٰ، أو أنك صرت من المحبّين والمحبوبين؟ فيا أيها المسكين الغافل عن حال المحبّين، ويا أيها الشقي الجاهل عن قلوب المحبّين ونارٍ تشتعل فيها، فيا أيها المسكين الغافل عن احتراق المخلصين ونور أعمالهم، أظننت أن أعمالهم أيضاً كانت مثل أعمالي وأعمالك؟ أتخيّلت أن صلاة أمير المؤمنين كانت مميزة عن صلاتنا بأنّ مدّ ولا الضالين كان فيها أطول، أو قراءته كانت

أصح من قراءتنا، أو أن طول سجوده وركوعه وأذكاره وأوراده كانت أكثر منا، أو أنه عليه السلام كان يمتاز عنا بأنه كان يصلي في كل ليلة عدة ركعات، أو أن مناجاة سيد الساجدين كانت كمناجاتي ومناجاتك، وأنّه كان بكاؤه ونحيبه لأجل الحور العين وإجاص ورمان الجنة؟

لعمرهم، وإنه لقسم عظيم، لو تظاهر جميع البشر وأرادوا أن يقولوا مرة واحدة «لا إله إلا الله» كما قالها أمير المؤمنين لم يستطيعوا ذلك، فيا ويلي لهذه المعرفة لمقام ولا ية علي عليه السلام، فأقسم بمقام علي بن أبي طالب، لو أن الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين غير الرسول الخاتم الذي هو مولىٰ علي وغيره، لو أرادوا أن يكبّروا تكبيرة واحدة من تكبيرات علي لما استطاعوا. إن أحوال قلوبهم لا يعلمها إلا هم.

فيا أيها العزيز أقلل من ادعائك حب الله.

فيا أيها العارف، أيها الصوفي، أيها الحاكم، أيها المجاهد، أيها المرتاض، أيها الفقيه، أيها المؤمن، أيها المقدس، أيها المساكين المبتلون، أيها التعساء المبتلون بمكائد النفس وهواها، أيها العجزة المبتلون بآمال النفس وأمانيها وحبها، إننا كلنا عاجزون وجميعنا بعيدون عن

الخلوص وحب الله بفراسخ، لا تحسنوا الظن بأنفسكم، ولا تدللّوا واسألوا عن قلوبكم هل هي طالبة لله أو طالبة لنفسها، هل القلب موحّد ويطلب الواحد أو أنه مشرك، فما هذا العجب وما معنىٰ هذا التدلل بالأعمال؟. العمل الذي لو فرض تمامية أجزائه وشرائطه وخلوه عن الرياء والشرك والعجب وسائر المفسدات، إذا كانت قيمته الوصول إلى شهوات البطن والفرج فماذا مقداره؟ حيث أنك تري إلى ملائكة الله هذه الأعمال بل لا بد أن تكون مستورة عن الأنظار، هذه الأعمال هي من القبائح والفجائع، لا بد أن يخجل الإنسان منها ويسترها. اللهم إنا نعوذ إليك نحن المساكين من شر الشيطان والنفس الأمارة. فاحفظنا أنت من مكائدها بحق محمد وآل محمد صلىٰ الله عليه وآله.

انتهى كلامه دام ظله مع المعجبين والمدللين بالأعمال.

كلمة جامعة للإمام الصادق (ع):

ونزين هذه الرسالة بكلمة جامعة عن الإمام الصادق عليه السلام ليكون ختامه من مسك. قال الصادق عليه السلام في مصباح الشريعة:

«العجب كل العجب ممن يعجب بعمله وهو لا يـدري بما يختم له، فمن أعجب بنفسه وفعله فقد ضلّ عن نهج الرشاد وادّعىٰ ما ليس له، والمدّعي من غير حق كاذب وإن خفي دعواه وطال دهره، فإنه أول ما يفعل بالمعجب نزع ما أعجب به ليعلم أنه عاجز فقير، وليشهد علىٰ نفسه لتكون الحجة عليه أو كد، كما فعل بإبليس. والعجب نواة حبها الكفر وأرضها النفاق وماؤها البغي وأغصانها الجهل وورقها الضلالة وثمرها اللعنة والخلود في النار، فمن اختار العجب فقد بذر الكفر وزرع النفاق ولا بد أن يثمر». صدق ولي الله.

والحمد لله أولاً وأخيراً وله المنّة ظاهراً وباطناً.

تم تسويد هذه الأوراق بيد المفتاق إلى رحمة الله السيد أحمد الفهري.

* * *

محتويات رسالة الرياء

محتويات رسالة العجب



المركز الرئيسي: بيروت ـ كورنيش المزرعة ـ الحسن سنتر
هاتف ٨١٦٦٢٧ ص.ب. ١٤/٥٦٨٠
فرع حارة حريك. مفرق الحلباوي.